الرد المفيد

على الدكتور الخشت

في مسألة التجديد



أبو الفداء ابن مسعود

عفا الله عنه

الرَّدُّ المُفِيْدُ

عَلَىْ الدُكْتُورِ الخُشْتِ فِي مَسْأَلَةِ التَجْدِيدِ

أبو الفداء ابن مسعود

عفا الله عنه

من إصدارات قناة إقناع



إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد، فقد ثار في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة هذه الأيام، جدل كبير حول كلمة ألقاها الدكتور محمد عثمان الخشت رئيس جامعة القاهرة في جلسة من جلسات مؤتمر عقدته جامعة الأزهر تحت عنوان "مؤتمر الأزهر العالمي للتجديد في الفكر الإسلامي: دور المؤسسات الدولية والدينية والأكاديمية في تجديد الفكر الإسلامي" وقد رأيت أن تلك الكلمة وإن كان قد تناولها شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب، جزاه الله خيرا، وغيره بالرد، إلا أن فيها من الطوام ما يحتاج إلى مزيد من البيان، لا سيما وقد اشتهرت تلك الكلمة فوق ما كان يرجوه لها صاحبها، وتناقلتها الصحف بنصها الكامل، بسبب ذلك الرد عليها. وإن كنا نحمد الله تعالى على أن جعل انكشاف واحد من رؤوس تلك الحركة التنويرية المزعومة وافتضاحه في تلك الواقعة التاريخية على يد شيخ الأزهر نفسه وفقه الله، إلا أن في تناول الإعلاميين لما جرى في تلك الجلسة بعدُ ما يلجئ لنشر رد علمي مفصل يأتي على جميع ما في تلك الكلمة، على الأقل، من الباطل العظيم، ويبين خطورة وفداحة النحو الذي يراد لدعوة "تجديد الخطاب الديني" هذه أن تنحوه بين أيدي علماء الأزهر أنفسهم، والله المستعان لا رب سواه!

وللأسف، ففي بضعة أيام، شاع خبر تلك المناظرة الوجيزة فوق ما كنت أتصور، وتسابقت الصحف ووسائل الإعلام في نشر أصل المقال أو "البحث"

(كما يسمى) الذي نشره الدكتور الخشت في المؤتمر، ومنه قال كلمته التي جرى على أثرها ما جرى! فرأيت أنه قد وجب تناول متن المقال كله بالنقد والتحذير مما فيه من الباطل العظيم، قياما بما شعر شيخ الأزهر وفقه الله أن مسؤولية التوقيع عن رب العالمين تقتضيه، والله الموفق للرشاد.

فسأنقل في هذا الرد من متن المقال موضعا موضعا معلقا عليه، مع نقل ما يتعلق به من الكلمة المسموعة التي ألقاها الدكتور من منصة المؤتمر ونقلت على اليوتيوب وغيره، غير مكتملة في موقع الأزهر وغيره.

قال الدكتور في صدر المقال (كما نشره على صفحته على الفيس بوك):

"تطوير العقل الديني القديم:

لابد من تأسيس خطاب ديني من نوع مختلف، وليس تجديد الخطاب الديني التقليدي، فتجديد الخطاب الديني عملية أشبه ما تكون بترميم بناء قديم، والأجدى هو إقامة بناء جديد بمفاهيم جديدة ولغة جديدة ومفردات جديدة إذا أردنا أن نقرع أبواب عصر ديني جديد. والمقصود هو الخطاب الديني البشري، وليس القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة." اهـ.

قلت: لا ينبغي أن يخفى أن القول بأن الواجب هجران "الخطاب الديني القديم" لصالح خطاب جديد، قياسا على أن هجران البيت القديم وبناء بيت جديد هو أحسن وأولى من ترميم القديم على ما هو عليه والبقاء فيه، هذا قول فاسد يدلك في مجرده على خبث المسعى الفلسفي الذي يسعاه دعاة التنوير هؤلاء، ويتخذون من دعوى تجديد الخطاب الديني مدخلا لبث سمومهم وأغراضهم

الخبيثة منه! وقد تفتطن الشيخ الطيب لهذه المسألة جزاه الله خيرا، وأجاب عنها بجواب استحق ما ناله من ثناء الحضور، إذ قال إن تجديد البيت القديم يكون بتحسين بعض ما فيه وتطويره، بتجديد ألوان الجدران مثلا أو إعادة بناء جدار قديم قد تهدم أو نحو ذلك، فهذا يصح فيه في اللغة والعقل أن يقال إنه قد جدد البيت، وأما هجران البيت القديم والتحول عنه بالكلية إلى بيت جديد، فلا يقال فيه إنه من تجديد للبيت نفسه، حتى وإن حاول أصحاب البيت الجديد أن يعيدوا بناءه بحيث يشبه البيت القديم، وهذا واضح! فبهذا القياس، يلزم صاحبنا أن يقول بأن المطلوب هدم الدين القديم كله وإعادة بناء دين جديد ليحل محله! وهذا ما أجاد شيخ الأزهر في إلزام الدكتور به، فجزاه الله خيرا.

وإني لأعجب والله من مقدار الكبر الذي يجب أن تطفح به نفس الرجل حتى يقول كما قال الدكتور، هكذا بكل سهولة: "والأجدى هو إقامة بناء جديد بمفاهيم جديدة ولغة جديدة ومفردات جديدة إذا أردنا أن نقرع أبواب عصر ديني جديد." اهـ.! ما أعظم الكبر الذي يعانيه من يخرج على المسلمين الآن بعد أربعة عشر قرنا من العلم والإمامة والفقه بدين الله تعالى، فني فيها من الأحبار والأئمة الأبرار والصحب الأخيار والتابعين الكبار ما لا يطمع أحدنا اليوم في أن يكون شراكا في نعل أحدهم، يخرج اليوم فيقول في هؤلاء جميعا إن تراثهم هذا كله "خطاب بشري" قد آن أوان تركه بالكلية وإعادة بناء علم ديني جديد بمفاهيم جديدة ولغة جديدة ومفردات جديدة .. إلخ!! يا هؤلاء اتقوا الله في أنفسكم، فإنه لا يدخل الجنة من كان في نفسه مثقال ذرة من كبر! أي

علم ديني هذا الذي تريدون إعادة بنائه بالكلية على "مفاهيم جديدة"؟؟ وأين مفاهيمكم تلك، كيفما كانت، من مفاهيم الذين سمعوا من رسول الله ﷺ كلامه كفاحا، وتعلموا منه الدين بلا واسطة، ثم الذين تبعوهم والذين تبعوهم وورثوا منهم مشكاة النبوة صافية كما نزلت، يقتفون الأثر على أحسن ما يكون الاقتفاء؟؟ وكيف يصح لمسلم يريد السلامة في الآخرة أن يقبل منكم ما تريدون من إزالة تلك العلوم السلفية كلها وإحداث علوم جديدة في محلها من طريقكم أنتم وبعقولكم أنتم، وأنتم قوم قد حشوا قلوبهم بآراء الفلاسفة وجدالهم؟؟ وهل يعقل أن يكون الآخر أعلم من الأول بمراد رب العالمين من كلامه الذي أوحاه لرسوله، وعلمه الرسول لأصحابه وجها لوجه؟ يكرر الدكتور تلك الكلمة الخبيثة التي قالها سابقوه ممن تشرب ببضاعتهم من الفلاسفة والمتكلمين في التعليق على تراث الأئمة عندما قوبلوا به في نقض بدعهم، ألا وهي قولهم "هم رجال ونحن رجال"، وقولهم: "لهم عقول ولنا عقول"، ونقول صدقت: أنتم رجال كما أنهم رجال ولا شك، ولكم عقول كما أن لهم عقولا ولا شك، ولا ندعي العصمة لعقل من عقولهم أبدا! وإنما نزعم افتقار الواحد منكم واضطراره إلى متابعة هؤلاء على ما فهموا، وبناء العقل نفسه على ما ورثوا من مشكاة النبوة، وإلا فلا فرق إذن بين ما كان عليه الناس قبل مبعث الرسول عليه السلام، وما صاروا إليه باتباعه في حياته وبعد موته ﷺ! ما فائدة ما جاء به الرسول من الوحي إن كانت عقول تلامذته لا فضل لها بسبب ذلك الوحي على عقول من جاء بعدهم، ولا يلزم تلك العقول المتأخرة أن تنبني على ما صار إليه هؤلاء وهي راغمة مضطرة؟؟

الدليل العقلي الدامغ على فساد مسعاك في إبدال التراث والعلم التراثي بعلم جديد، بداية من أصول المفاهيم وأنواع العلوم وأدواتها، هو أن هذا القديم الذي تريد إهماله، لا سبيل لمعرفة مراد الله ورسوله من الوحي إلا من طريقه، وباستعمال أدواته ونظمه وأصوله وقواعده ومفاهيمه التي تعلمها العدول من علماء الأمة وتوارثوها كابرا عن كابر، مصداقا لقوله عليه السلام: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة وهم على ذلك"! فلا يرتاب عاقل في أن المعلم الذي جاء الناس بعلم لم يعرفوه قبله، وفصله لهم تفصيلا، يبين لهم طريقة الأخذ والتلقي والقبول والرد وما يدخل فيما يعلمه إياهم وما لا يدخل، ويقضي ثلاثا وعشرين عاما في تعليمهم ما عنده، هذا إن كان في الناس حاجة إلى تعلم جميع ما جاء به من العلم لأجيال من بعد موته، فلا طريق أمامهم إلى ذلك إلا بالتتلمذ على تلامذته الذين لازموه وصاحبوه وتلقوا منه مباشرة بلا واسطة! وإذا كان الرب سبحانه قد اختار في حكمته أن يصطفي رجلا من خلقه ليكون معلما للناس كافة إلى قيام الساعة، فلابد أن تقتضي تلك الحكمة أن يصطفي له من الأصحاب والتلامذة والحواريين خير القلوب وأصفاها وأطهرها وأسلمها من الكبر والهوى، حتى تكون أفضل الأوعية وأحسنها لذلك العلم الوافر الذي بعثه به ربه، فضلا منه ومنة.

وإذا كان العلم لا ينتفع به حملته حتى يفهموه عن صاحبه أحسن الفهم، وحتى يعلموا كيف يعملون به على أحسن ما يرام، وكان الخطاب الذي جاء به الرسول فيما بعث به من العلم متجها إلى جميع بني آدم من بعده إلى قيام

الساعة، على اختلاف الأمصار والأعصار، لزم أن يكون في ذلك العلم نفسه وفي ذلك الميراث نفسه ما يجب أن يتلقاه العدول في كل جيل عن أمثالهم من الجيل السابق عليه، حتى يستخرجوا منه لا من غيره، وبأدواته وأصوله نفسها لا بغيرها، ما يحصل لهم به أكمل انتفاع بذلك الميراث العظيم، كما حصل لسابقيهم! ولا يكون حفظ ذلك الدين الخاتم ولا يرجى أن يكون انتفاع أهل كل قرن من القرون به كانتفاع سابقيهم، إلا بذلك! أن يقال كما قال مالك رحمه الله: فما لم يكن يومئذ دينا فليس اليوم دين، وأن يقال كما قال التابعي الكبير محمد بن سيرين رحمه الله: إنما هذا العلم دين، فلينظر أحدكم عمن يأخذ دينه!

من هنا، وتأسيسا على ما تقدم، لزم – عقلا - ألا يخرج تجديد الدين أو الخطاب الديني في أي عصر من العصور، ذلك التجديد المطلوب شرعا، الذي قال رسول الله ﷺ إن الله يبعث من يقوم به على رأس كل قرن، عن أن يكون إحياءً لما درس من السنن ومن علوم الأولين، واستنباطا واستخراجا من بطن ذلك التراث نفسه، وبأدواته نفسها، لما يظهر به التوحيد على ما يحدث من الشرك في هذا العصر أو ذاك، ويحصل به الرجوع إلى الأمر الأول الذي كان عليه الصحابة من إجماعات في كليات الدين وفرعياته، لا أن يكون إحداثا واختراعا لما يخالف تلك المحجة البيضاء أو يخرج عليها! فمن لم يفهم الفرق بين تجديد الدين وتبديله، فليس له أن يخوض في تلك القضية أصلا، ولا أن يقترب من الكلام فيها، والله المستعان لا رب سواه!

يا هؤلاء يجب أن تفموا أن النبي عليه السلام يوم وقف في خطبة الوداع وخاطب الناس بقول الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ الآية [المائدة : ٣]، لم يكن خطابه بذلك متجها إلى الملأ ممن حضروه خاصة، وإنما كان متجها إلى جميع المسلمين إلى قيام الساعة! فلو قدرنا أن كان الدين الموصوف بأنه قد كمل وتم للمخاطبين به في هذه الآية الكريمة، هو ما بين دفتي المصحف وحسب، بل ومعه ما أثر عن النبي عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير، لما صح أن ندخل نحن اليوم في هذا الخطاب، ولما صح أن يوصف عليه السلام بأن الله قد بعثه رحمة للعالمين! ذلك أننا لم نحضر النبي عليه السلام ولم نشهده ولم نسمع منه سماعا مباشرا كما سمع أصحابه الذين خاطبهم بهذا الخطاب، ولم نفهم عنه ما فهموه هم من فهم ظهر في أقوالهم وأعمالهم ومواقفهم في الفتن والنوازل رضوان الله عليهم، واستنبط منه العلماء ما به كمل لهم فهم الدين وتم به الميراث، حتى استجاز علي رضي الله عنه أن يقول في فتنة مقتل عثمان: "أنا من علم المسلمين قتال أهل القبلة"! فليس من فراغ أن أمرنا النبي نفسه عليه السلام في حياته بالتزام سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، فإنه لا يعرف الدين الخالص النقي الذي جاء به عليه السلام إلا من طريقهم، تلك الطريق التي وصلت إلينا بنقل الآحاد في أكثرها، التي لولاها ما حفظ القرآن نفسه وما حصل في نقله من التواتر عبر القرون ما حصل!

ولهذا قلنا في غير مناسبة إن النص الذي يورث دون أن يورث معه فهمه الصحيح، هذا لا قيمة له ولا انتفاع به، بل إن وجوده يكون كعدمه! الأمة التي تخلو من فهم سلفي متصل سنده للنصوص الموروثة فيه، نزولا عن الرسول

نفسه عليه السلام أو عن تلامذته وحوارييه رضي الله عنهم، هذه لا قيمة لتلك النصوص التي ورثوها ولا انتفاع لهم بها أصلا! وهذا نراه عيانا في أمم سابقينا من أهل الكتاب كما لا يخفى على من يعلم طرقهم في تأويل نصوصهم والتعامل معها! لا حجة عند القوم لفهم على فهم ولا لتأويل على تأويل، لأن الفهم الأول منقطع الإسناد ولا أثر له!

فليس أصل الآفة عند أهل الكتاب في أن نصوصهم المقدسة عندهم نفسها لا تثبت نسبتها إلى أصحابها بسند متصل! وإنما أصلها على التحقيق هو افتقارهم جميعا لميراث مفصل فيه من الشرائع والعلوم ما يحصل به حفظ الذكر (الذي هو النص وفهمه معه، وليس النص وحده)، لو بقي عندهم كما كان حقه أن يبقى دون تحريف أو تبديل، لدخلوا اليوم جميعا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولما تخلفوا عن قبول دعوته والدخول فيها طرفة عين، ولما أنشأوا الكنائس والمعابد ولما ألزموا الناس بالبقاء على تلك النصوص التي بين أيديهم إلى قيام الساعة! فهم لما ضيعوا الفهم الصحيح لما جاءتهم به رسلهم، وأخفوا ما كان عليه النبي والصادقين من أتباعه من ذلك الفهم والعمل، من أهواء نفوسهم وشهواتها، ترتب على ذلك تحريف النص الموروث نفسه وتبديله، وليس العكس! فلولا أن قضى الله لفهم النصوص أن يحفظ معها في أمتنا في نفس الأوعية التي حفظت النص نفسه، لما حفظ النص ولما بقي، فانتبه لهذا فإنه مهم!

فلأن الله جل شأنه لم يرد لتلك الشرائع التي بعث بها موسى وعيسى من قبل، أن تكون هي الدين المرتضى من الناس إلى قيام الساعة، سبق في تقديره ألا

يحمل هؤلاء ما حملهم ربهم من الأسفار ومن علوم الوحي! فلا يسوي بين طبيعة التراث الديني الذي ورثه المسلمون عن رسولهم وأصحابه رضي الله عنهم، وطبيعة التراث الذي عند غيرهم من أهل الملل الكتابية، الذين كانوا ولم يزالوا من أثر ذلك تتلاعب الفلاسفة بهم وبدينهم بلا ضابط ولا رابط، إلا جاهل لا يدري ما يخرج من رأسه، أو زنديق يبطن الكفر المحض! نحن نقول إن أسباب حفظ الدين وتجديده في كل عصر بما يناسبه لا خروج لها عند المسلمين عن هذا التراث نفسه، المبثوث في مدونات السنة وكتب من شرحوها من أئمة المسلمين! فالذكر المحفوظ في تراثنا على التحقيق، هو القرآن والحديث وما به يفهم القرأن ويفهم الحديث، كما في قوله تعالى:

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤]! هذا الذكر المفصِّل والعلم المبيِّن، قد قضى له الرب جل شأنه من أسباب الحفظ بالسند المتصل في هذه الأمة ما اختصها به فضلا منه ورحمة للعالمين!

أنت يا دكتور تقول إن المستهدف بالتجديد والتغيير إنما هو "الفهم البشري" للقرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة، فإذا كان القرآن لا ينتفع به إلا بلغته التي نزل بها، فلا بد من حفظ اللغة وعلومها مع حفظ القرآن، فإن كانت تلك العلوم هي المقصود بالفهم البشري، فهو حجة علي وعليك ولا ننتفع بالقرآن إلا به، وإن كان بشريا! وإذا كان القرآن لا يفهم إلا بالسنة بما فيها من آثار الصحابة وأقوالهم وأفعالهم، والسنة الصحيحة المطهرة لا تعرف صحتها إلا

بعلوم البشر الذين حرروا الطريق الصحيحة لقبول ما يقبل من روايات الناس ورد ما يرد، فلابد أن تكون إجماعاتهم في علوم الرجال وعلوم الحديث وأصوله، التي هي عندك من "الخطاب الديني البشري" كذلك، حجة علي وعليك في أصولها وفروعها، وفي طرق الاستدلال فيها وفي آحاد مسائلها، لأننا ما كنا لنعرف صحيح السنة المطهرة من ضعيفها إلا بها، ولولاها ما وصلت إلينا آلة البحث في صحة الرواية أصلا! بل وإذا كنا نقطع بأن لرب العالمين مرادا معينا من كلامه في القرآن، يجب علينا أن نعرفه على ما هو عليه في الحقيقة، ومن ثم أن نأخذ بأسباب معرفته والوقوف عليه، لزمنا اضطرارا أن نتبع ذلك "الخطاب الديني البشري" الذي كان عليه أئمة علوم التفسير في أصول تلك الصنعة ومصادر تلقي المعرفة فيها، تلك الصنعة التي درج عليها الصحابة أنفسهم وتابعوهم في فهم الكلام الذي خوطبوا به بلسانهم، وفيما أجمعوا على أنه مراد الرب من كلامه، بل وألا نخرج على خلافهم بقول لم يعرفوه أبدا ولم يخطر لهم ببال، لأنه لو جاز أن تجمع الأمة على ضلالة في دينها في قرن من القرون، فلا يقوم بالحق فيها قائم البتة، لبطل حفظ الذكر الذي نص عليه رب العزة في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]! وعلى هذا، فإذا كانت علوم الشريعة كلها تتكامل في تحقيق الفهم الصحيح الذي عليه جرى عمل الصحابة بما تلقوه من إمامهم وأستاذهم ﷺ، وكنا نحن اليوم مطالبين به كذلك إن أردنا النجاة كما نجوا، كانت تلك "العلوم البشرية" تراثا لا غنية للمسلم المعاصر عن تلقيه وتعلمه كما هو، رضي من رضي وكره من كره! فإن تعلمه المسلم المعاصر وفهمه

حق الفهم، وطبع عقله على ما كانت عليه عقول أئمة السلف في التعامل معه ومع مصادر التلقي المعرفي فيه، وبلغ في التشبع بذلك غاية المرام، فحينئذ وحينئذ فقط قد يرجى له أن يبلغ من منازل العلم والاجتهاد ما يؤهله لأن يجعله رب العالمين إماما مجددا للدين، على المعنى الحق للتجديد الذي هو الرجوع للأمر الأول، وليس نبذه ومفارقته تأصيلا وتفريعا كما يريده هؤلاء!

فإذا كان محصول هذه العلوم التراثية، هو ما يشير إليه الدكتور الخشت بقوله "العقل الديني القديم" وقوله "الخطاب الديني البشري"، فهو عقل معصوم بالجملة وخطاب معصوم بالجملة، عصمة واجبة لا يحصل حفظ الدين إلا بها! ولا يشغبن أحد علينا بقوله إنكم بذلك تنسبون العصمة لآحاد الصحابة والتابعين أئمة السلف، ولا معصوم بعد الرسول عليه السلام، فإننا عندما نقول إن منهجا ما معصوم، أو إن إجماعا ما معصوم، فلا نزعم بذلك أن آحاد من ينتهجون ذلك المنهج معصومون، أو أن أفراد من نسب إليهم ذلك الإجماع معصومون بأعيانهم! فنحن نؤمن بأن الأمة لا تجمع على ضلالة، وأنه لابد فيها في كل عصر من قائم بالحق، مهما فشا الباطل وانتشر، ونؤمن مع ذلك بأن الحق لا يجتمع في جميع مسائل الدين في رجل واحد بعد النبي عليه السلام! فمن لم يدر ما الفرق بين عصمة الفرد وعصمة الأمة بمجموعها، فهو عامي لا وزن لكلامه ولا التفات إليه!

والحاصل أن تفريق الدكتور بين ما سماه "بالخطاب الديني البشري"، والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، من حيث الاستهداف بما سماه "بتأسيس

خطاب ديني من نوع مختلف" وبما سماه "بتطوير العقل الديني"، هو تفريق واه لا حقيقة له عند المفاصلة وعند التحقيق!

يمضي الدكتور بعدُ ليقول:

"ولا يمكن تجديد الخطاب الديني بدون تكوين عقل ديني جديد، ولا أؤمن بإصلاح العقل الديني القديم؛ لأن العقل الديني البشري القديم تشكل في ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية ومعرفية طرحتها العصور القديمة. والأبنية العقلية القديمة تلائم عصورها ولا تلائم عصرنا؛ فالزمان غير الزمان والمكان غير المكان، والناس غير الناس، والتحديات القديمة غير التحديات الجديدة. إنني أحب بيت أبي القديم لكنني لا أحب أن أعيش فيه، وأقدر تراثنا القديم لكنني أحب (أنا وغيري) أن نصنع تراثا جديدا نعيش فيه؛ فهم رجال ونحن رجال، وهم أصحاب عقول ونحن أصحاب عقول. إنني وغيري كثيرون لا نحب أن نكون في زمرة القائلين (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)(البقرة: ١٧٠)." اهـ.

قلت: هنا يأخذ الدكتور في استعمال المجملات الموهمة الجذابة والخادعة على طريقة الفلاسفة التي تربى عليها، فيقول "ولا يمكن تجديد الخطاب الديني بدون تكوين عقل ديني جديد"، فإذا سمع كلامه من لا يدري حقيقة مسعاه ومنتهى مرماه، قال لعله يقصد بتكوين "العقل الديني" الجديد، ذلك العقل المطلع على نوازل العصر، المؤهل للبحث فيها والنظر فيها واستعمال آلات العلم الشرعي الموروثة في استنباط أحكامها والمواقف الشرعية الصحيحة منها، المؤسسة على تصور صحيح! ولكن هذا ليس هو مقصوده في الحقيقة!

وإنما يقصد بالعقل، تلك الآلات والأدوات الموروثة نفسها! فالرجل كما سيتبين لك من كلامه لا يعيب على علماء الأمة شروع بعضهم في البحث والتحقيق في مستجدات العصر على قصور أو نقص لديهم في تصور القضايا التي يبحثون فيها والإلمام بما يلزم معرفته من أنواع المعارف العصرية من أجل ذلك! وإنما ينقم عليهم اتباعهم سلف الأمة في فهم النصوص وفي طرق الاستنباط منها بالأساس! ولهذا يعلل موقفه مما سماه "بالعقل الديني القديم" بقوله: "لأن العقل الديني البشري القديم تشكل في ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية ومعرفية طرحتها العصور القديمة. والأبنية العقلية القديمة تلائم عصورها ولا تلائم عصرنا؛ فالزمان غير الزمان والمكان غير المكان، والناس غير الناس، والتحديات القديمة غير التحديات الجديدة."!

ولا نملك هنا إلا أن نسأل: أي شيء هذا، في مصطلح علماء الملة، الذي تقصده "بالعقل الديني البشري" القديم، وتقول إنه تشكل على نحو ما ورثناه بسبب ظروف عصره؟؟ أي مراوغة وأي تلاعب بزخارف الأقوال هذا؟؟ إنها صنعة الفلاسفة قبحهم الله! إذا كان مآل الكلام ومحصوله هو أن كل ما سوى النص الموروث للقرآن و"للسنة الصحيحة" على عبارته، فهو من "العقل البشري القديم" الذي لم يكن على ما كان عليه إلا تحت تأثير ظروف عصره الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والمعرفية .. إلخ، فحقيقة دعوى الدكتور هي كأنما يقول: خذوا المصحف وكتب السنة وكأنما اكتشفتموها بالأمس في كهف من الكهوف أو في صندوق مدفون تحت الأرض، ثم انطلقوا أنتم في فهمهما والبناء عليهما بما يناسب عصركم! وهذه

زندقة ولا شك، إذ حقيقتها نزع نصوص الوحيين عن جميع أسباب فهمهما الصحيح الذي لا يصح اعتقاد المسلم وعمله إلا به!

يقول: "إنني أحب بيت أبي القديم لكنني لا أحب أن أعيش فيه، وأقدر تراثنا القديم لكنني أحب (أنا وغيري) أن نصنع تراثا جديدا نعيش فيه؛ فهم رجال ونحن رجال، وهم أصحاب عقول ونحن أصحاب عقول. إنني وغيري كثيرون لا نحب أن نكون في زمرة القائلين (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)(البقرة: ١٧٠)."

قلت: أي "تراث جديد" هذا الذي تريد أن تصنعه؟ التراث إنما يقال له تراث لأنه يورث يا دكتور لا لأن ثمة من صنعه وجعله "تراثا"! فأنت إن أهملت تراث المسلمين، لم يكن ما تأتيهم به في محله "تراثا"، أيا ما كان، كما هو واضح، وإنما كان اختراعا جديدا من كيسك أنت، تريد أن تقيمه مقام ما ورثه المسلمون، وإذن فلا قيمة له في موازين التراث مهما بقي بعد في الناس، ولو مكث فيهم قرون عددا، لأنه لم يورث عمن كانوا تلامذة الرسول عليه السلام، وكان الوحي بلسانهم! يجب أن تفهم يا دكتور أن السبب في تعظيمنا هذا التراث "البشري" (على عبارتك) وفي منافحتنا عنه غاية ما تكون المنافحة، ليس مجرد أنه تراث وأن عمره يبلغ بضعة عشر قرنا من الزمان، بل وليس لأنه نتاج عقول عبقرية نشك في أن يأتي الزمان بمن هو أذكى منها أو أقدر على الإبداع والاختراع منها! أبدا والله! لو كان الأمر كذلك لقبلنا منك قولك إنهم رجال ونحن رجال، وإن لهم عقولا ولنا عقول، وإذن فلا فضل لسلف على خلف ولا لقديم على جديد، بل ولا فضل لجديد على قديم كذلك، لأن

الأمر إذن لا يزيد على أن يكون منظومة فلسفية ميتافزيقية واجتماعية وأخلاقية، اخترعها ثلة من الفلاسفة القدماء زعموا أنهم متعلقون بوحي السماء، وإذن فلن يعجز الفلاسفة المعاصرون عن الإتيان بمثلها مما يرون هم اليوم أنها تلائمهم وتناسب ظروفهم وعصرهم كما أتى السابقون من قبل بما زعموه ملائما لظروفهم هم ومناسبا لعصرهم هم، ولا يلزم المتأخرين إذن أن يكونوا تبعا للمتقدمين فيما بدعوه من ذلك لا لشيء إلا لأن الأولين زعموا أن الآخرين لن يفلحوا إلا بما اخترعوه هم! نعم ليس في نظرية الفيلسوف القديم، النابعة من عقله هو وقياسه هو بالأساس، دونما مستند من وحي السماء، أي فضل على رأي غيره ممن جاؤوا بعده، ولا شيء على الإطلاق يلزم الفيلسوف المتأخر بالتماس "سلف" لأفكاره في أعمال سابقيه، لأنه لا فضل أصلا لعقل فيلسوف على عقل قرينه، ولا حجة في نظرية أحدهم على من سواه!

ولكن هذه سمة الفلاسفة وما بدعوه من أكيساهم، وما اخترعوه لأتباعهم من ملل وعقائد واهية لا قيام لها على وحي السماء! أما ونحن نتكلم عن كتاب رب العالمين المحفوظ نصا وفهما إلى قيام الساعة، فالسلف (إجمالا) أعلم من الخلف (إجمالا) قطعا وإن رغمت أنوع الفلاسفة! فكلما علونا بسندنا فيما ننقل من مفردات ذلك التراث، وتحققنا من موافقة فهمنا لما كان عليه سلفنا بما اجتمع بين أيدينا من آثارهم، كنا أحظى بالعلم ممن سوانا! ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء! وإذن فعلى كل من يطلب العلم بذلك الإرث النبوي المبارك أن يرغم أنفه ويكسر كبر نفسه وينزل على ركبتيه بين أيدي العلماء الذين ورثوه

بالسند المتصل عن أمثالهم ممن سلفوا، وإلا فالله غني عنه وعن أمثاله، ولن يخسر المسلمون شيئا ببقائه هو على كبره وجحوده، ولن يعنيهم في أي واد يهلك هو وأتباعه، والحمد لله أولا وآخرا!

فعندما تجد في كتب "فلاسفة الدين" الذين تشربت بأفكارهم، يا دكتور، أن "الفكر الديني" أو Religious Thought كما يصطلحون عليه، أو "العقل الديني" كما تسميه أنت هنا، قد تطور عبر العصور، وأنما هو النتاج الطبيعي لمختلف العوامل التاريخية والاجتماعية التي كانت تعيشها الأمم التي أنتجته، بهذا الإطلاق الذي تتكلم أنت به، فاعلم أنما هذا كلام أناس لا يؤمنون بالغيب، ولا يثبتون ربا في السماء قد أرسل في أمم البشر رسلا وأنزل عليهم كتبا، آخرها هو كتاب المسلمين المحفوظ بين أيديهم إلى يوم الدين! ولهذا اختلفوا في "نشأة الدين" تاريخيا، وهل كان أصل ما سموه بتطور الأديان، هو ابتداؤها بالوثنية ثم الترقي إلى التوحيد، أم أن التوحيد والوثنية كانا من أول ظهور الدين ظاهرين في جماعات البشر، ولم يزالا يتصارعان، أم أن الأصل كان هو التوحيد ثم ظهرت الوثنية؟؟ نظريات وأوهام مدارها كلها على أنه سواء التوحيد أو الوثنية فكلتاهما نظريتان بشريتان من صنع أناس قد حملتهم على اختراعهما دواع اجتماعية وتاريخية وظروف معينة لو درسوها دراسة أكاديمية فسيتبين لهم الموقف "العلمي" العصري الصحيح من خلاف أهل الملل فيما بينهم!

فوصف تراث أمة من الأمم في الدين على سبيل التوهين والتهوين، بأنه نتاج عقل بشري، وأنه قد يحتاج إلى إبدال وبناء عقل جديد بالكلية كما تقول، قد

يصح ولا شك في أديانهم هم، التي هي من اختراعهم هم، من غيرما وحي ولا رسالة ولا شيء! وصحيح إن منها ما فيه بقايا من رسالات سماوية سابقة، إلا أن أصول الاعتقاد فيها وما جاء به أصحابها من دعاوى مفصلة بشأن الغاية من وجودنا في هذا العالم، وطبيعة الأعمال التي من أجلها خلقنا ومن أجلها نموت، هذه أكثرها في تلك الملل يكون من اختراع القوم وفلسفتهم، وإذن فلا فضل فيها لمتقدم على متأخر، ولا لمتأخر على متقدم على التحقيق، ولن تجد فيها معيارا للحكم بفساد أي دعوى من دعاوى "التجديد" أو "الإصلاح الديني" التي يأتي بها المعاصرون من أهل تلكم الملل المخترعة إلا أنها تخالف ما وجدوا عليه آباءهم! هؤلاء لك أن تتهمهم أنت وأمثالك ما شئتم بأن "عقلهم الديني" معطوب، وأنه لا علاج له إلا الإبدال بالكلية، وإن رغمت أنوفهم، وبأن جميع ما تجده منهم من مقاومة ومعارضة "للعقل الجديد" الذي تدعوهم إليه أيا ما كان، إنما ينشأ عن تعصب للقديم ولسنن الآباء كيفما كانت، وعليهم إن أرادوا "التجديد" أن ينسفوا تراثهم نسفا! هم قوم قد سبق من أسلافهم الأوائل أن تلقوا دينهم عن مصادر فاسدة معطوبة من الأساس، فلا يغني عنهم شيئا أن كانوا ورثة السلف الأول من أصحاب ذلك الرأي الفاسد نفسه، ولا قيمة لتراثهم في ميزان المعارف إذن، وإن توارثوه لعشرات القرون! وإذن فلن يجد الفيلسوف المعاصر الذي يريد أن يسايس هؤلاء جميعا ويداهنهم ولا يصطدم معهم فيما ورثوا، إلا أن يحكم بنسبية الحقيقة فيما اختلفوا فيه جميعا، فيقول إنه لا فضل للسابق على اللاحق إلا باستحسان الجماهير في كل عصر بحسبه، تحت تأثير كذا وكذا من العوامل الاجتماعية والسياسية! فهم لما خلت أكياسهم من مصادر موضوعية

راسخة لتلقي المعارف فيما خاضوا فيه برؤوسهم وأهوائهم، زعموا أن الأمر في تلك الأبواب نسبي هوائي، ليس فيه حق مطلق يتحيز عند هذه الطائفة أو تلك، فيما سموه "باحتكار الحقيقة"، ومن ثم يصبح المتعين على من سواها من الطوائف أن تطلبه منها وأن تتلمذ على يديها فيه! فهو تصور دهري علماني صرف، لا محل فيه لوحي السماء أصلا، ولا يعامل النص الديني فيها إلا معاملة النقش الأثري على جدران الكهوف والمعابد القديمة، الذي يحق لكل باحث مغامر في الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا والفينومينولوجيا وغيرها من "لوجيات" القوم، أن يتأوله كما يزعم أن نظرياته تدله عليه!

فعندما يؤتى بمثل هذا التصور الفلسفي الغربي الدهري المحض لمنابع المعرفة الدينية ومصادر تلقيها عند الأمم، إلى دين خاتم المرسلين، الذي تكفل رب العالمين بحفظه إلى يوم الدين، ولا نجاة لبشر في أيما عصر من العصور إلا بتلقيه من نفس المشكاة التي تلقاه منها أهل القرون السالفة، ثم يقال إنه لا جدوى من "إصلاح العقل الديني القديم" عند المسلمين، ولابد من نبذ مفهوم "السلف" و"السلفية" وبناء "عقل جديد" بالكلية، فهذا كلام من لا يدري عن أي ملة يتكلم، ولا يعقل عمن تشرب بفلسفتهم أصولها التي تقوم عليها عندهم، وحق لمثله أن نجعله نكالا وعبرة لمن يعتبر!

هذه الآية التي جئت بها يا دكتور إنما نزلت في المشركين الذين لما جاءتهم دعوى التوحيد والإسلام، قابلوها بالرد لا لشيء إلا لأنها تخالف دين آبائهم! وهو ما يحتج به الفيلسوف المعاصر على أتباع أمثاله من الفلاسفة القدماء، إن لم يجد بين يديه ما به يقنعهم بأن نظريات السابقين وآراءهم لا تصح! فلا

يملك حينئذ إلا أن يذكرهم بأن ما ورثوه لا يعدو أن يكون رأيا معظما عند آبائهم، ولا مستند له في ميزان المعرفة إلا هذا، وأنه لو قدر أن بدعه اليوم فيلسوف معاصر ولم يكن له ذلك التاريخ الطويل من الأتباع عبر القرون، لأهمله الناس ولما رفعوا به رأسا! مع أنه لن يأتيهم على التحقيق إلا بمثله في الوهاء، ما دام موضوع فلسفته في المغيبات المحضة وفي الغاية العليا التي من أجلها وجدنا في هذا العالم! لكن إن اتهمهم بأنهم لا مستند لهم في تعلقهم بما سلف وما كان عليه السابقون إلا تعظيم تراث الآباء أيا ما كان، فقد صدق وهو كذوب!

والعجيب أن الرجل وجد من الجرأة في كلمته التي ألقاها على الحضور في المؤتمر، ما افتات به على الأئمة رحمهم الله تعالى، وأقسم حانثا بالله الذي لا إله إلا هو أن الشافعي لو بعث بيننا اليوم لجاء بفقه جديد، وأبو حنيفة لو بعث في عصرنا لأتى بفقه جديد! ونقول إنه أقسم حانثا لأنه لا يقصد بالفقه هنا آحاد المسائل التي يُتصور أن تتغير الأحكام فيها بتغير الزمان والأحوال والأوصاف والأسباب، بناء على نفس الأصول والقواعد الكلية، وإنما يقصد بالفقه جميع الأصول والقواعد التي يستعملها علماء الفقه في الاستدلال والاستنباط، هكذا جملة واحدة! وهذا منه محض كذب على أئمة المسلمين! وما أسخف ما يقع منه عندما ينتصر لدعواه تلك بحقيقة أنك إن فتحت كتب الفقه الحنبلي، مثلا، فستجد للإمام أحمد رحمه الله قولين أو ثلاثة في كثير من المسائل! فيا دكتور هذه أقوال في مسائل معينة، والذي يلزمك حتى تقنعنا بموافقتك لطريقة الأئمة رحمهم الله تعالى، أن تخرج لنا من كتب التراث إماما

واحدا من أئمة المذاهب الأربعة جاء بأصول مذهبه وقواعده من كتب الفلاسفة الذين عاصرهم ونظرياتهم!

ألا تستحي يا رجل؟؟

يا دكتور هما طريقان لا ثالث لهما: إما أن تثني ركبتيك بين أيدي علماء الملة، كما ثنوها هم من قبل بين أيدي مشايخهم، وتصبر على ذلك ما شاء الله، لتأخذ ميراث النبوة من حيث أخذوا، وإما أن تتعاظم بعقلك كما استعلى سلفك من فلاسفة القرون السالفة بعقولهم، تجمع لنفسك من الأتباع والأشياع نظير ما جمعوا، ثم تمضي إلى حيث مضوا جميعا ولا كرامة، نسأل الله السلامة! فاختر لنفسك أيهما شئت، مستحضرا قول ربك جل في علاه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٧-٨]!

يقول الدكتور:

وهذا ما سعينا إليه على مستوى الخطاب الديني في كتابنا (نحو تأسيس عصر ديني جديد) من أجل بيان أن كل ما جاء في التاريخ بعد لحظة اكتمال الدين التي أعلنها القرآن (اليوم أكملت لكم دينكم)(المائدة: ٣)، إنما هو جهد بشري قابل للمراجعة، وهو في بعض الأحيان اجتهاد علمي في معرفة الحقيقة، وفي أحيان أخرى آراء سياسية تلون النصوص بأغراضها المصلحية المنحازة.

وفي كل الأحوال – سواء كانت موضوعية أم مغرضة- ليست هذه الآراء وحيا مقدسا، بل آراء بشرية قابلة للنقد العلمي.

قلت: هذا الكلام يبين خلطا عظيما عند الدكتور في فهم الكيفية التي نشأ بها تراث العلوم الشرعية عند المسلمين. فإن هذا الكلام يشعرك بأن الصحابة كان عملهم على امتداد ثلاث وعشرين عاما هي مدة البعثة النبوية، مقصورا على السمع والحفظ وفقط، وأنهم لم تنشأ لديهم قواعد الفقه والاستنباط في تلك السنوات الطويلة تأسيسا على ما سمعوا وما تعلموه من رسول الله ﷺ! وهذا كلام من لا يدري ما الفقه ولا ما أصول الفقه هذه التي يريد أن يوهم قراءه بأنها صنعة إنما نشأت بعد اكتمال الدين وتمام الوحي، على أثر تلك العوامل التاريخية التي لم يزل يكررها هو وأمثاله في كل مناسبة! والصواب الذي عليه العلماء ولا شك هو أن اكتمال الدين وتمامه ما كان ليحصل إلا وقد اكتملت آلة البحث والنظر والاستنباط فيه عند علماء الصحابة رضي الله عنهم على نحو لم يزد من جاؤوا بعدهم من أئمة أهل السنة الراسخين على أن يستخرجوه استخراجا ويستقرئوه استقراءا من تراث هؤلاء النبلاء الأكابر رضي الله عنهم من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم! وكذلك يقال في نشأة جميع علوم الدين، فإنما كانت كلها، أي ما أجمع عليه المسلمون منها، تأصيلات وتقريرات وتحريرات لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم في فهم النصوص والعمل بها! وهل يطلب من العلوم الشرعية مطلوب أعلى أو غاية أسمى من أن توصل المسلمين في كل عصر من العصور إلى أن يكون فهمهم كفهم الصحابة، وعملهم بالدين كعمل الصحابة؟؟ هذا هو أسمى المطالب لكل

مسلم ولا شك، وما من أجله وضعت تلك العلوم! أنت الآن أعجمي لا تدري لسان الصحابة، فتطلب العلم بعلوم اللغة رجاء أن تتعلم لسانهم حتى تفهم النصوص كما فهموا، ولا تدري شروطهم في قبول الخبر ورده، فتتعلم ما أصله علماء الحديث من أجل أن توافقهم فيما به قبلوا ما قبلوا وردوا ما ردوا، ولا تدري طريقتهم في استنباط الأحكام من النصوص، فتتعلم ما حرره أئمة الأصول رجاء أن تستخرج من مدوناتهم طريقتهم رضي الله عنهم في ذلك، وهكذا في جميع علوم الدين! كلها ليس لها مطلوب أسمى ولا أعلى من تحقيق العلم بما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم! فافهم هذا إن كنت تريد النجاة بالدين حقا كما نجى به من سبقوك!

نعم آحاد الأقوال الموصوفة على اصطلاح العلماء بأنها من الشرع المؤول ليست كالشرع المنزل، وليست ملزمة للمجتهد إن ظهر له ما يترجح عليها، ولكن هذا لا ينفي حجية الإجماع إذا ثبت، وأنه هو المصدر الثالث من مصادر التلقي في شريعة الإسلام، بل وأنه هو ما عصم الله به هذه الأمة من ضياع الدين! فصحيح إن آحاد الآراء والاجتهادات الجارية في تلك العلوم إنما هي آراء بشرية قابلة للنقد، ولكن على أي أساس يقوم نقد هذا القول أو ذاك من أقوال السابقين عند المسلمين وبأي شيء ينتهض به، ويرجى صوابه معرفيا وقبوله عند الله تعالى ديانة، إن لم يقم على طريقة السلف والصحابة أنفسهم في الفهم والنقد؟؟ هذا هو حرف المسألة، ومحل النزاع العظيم بيننا معاشر أهل السنة وبين الفلاسفة والمفكرين والتنويريين ومن شاكلهم، فافهمه!

الفيلسوف يريد أن يجعل نظرياته هو أو من قلدهم من الفلاسفة، هي مصدر التلقي المعرفي الذي عليه يحصل الأخذ والرد والنقد والتحليل، وغير ذلك من عمليات التعقل! فالعقل عنده إنما هو محصول تلك النظريات التي تشبع بها وحشى بها صدره على التحقيق! فعندما يأتيك من يقول إنه يرى أن "العقل الديني" لن يستقيم إلا بأن يعاد تفسير جميع نصوص القرآن وفقا لنظرية كذا أو نظرية كذا، مثلا، أو أن يصبح معيار قبول آثار السلف وردها هو فلسفة كذا أو نظرية كذا مما تشبع هو به، فهذا قد وطن عقله على ألا يفهم كلام ربه وكلام رسوله إلا بناء على تلك النظرية التي ما عرفها الأولون ولا افتقروا إليها حتى يفهموا خطاب الوحيين! وهذا المعنى وحده يكفي لإسقاط تلك الدعوى الخبيثة، فكيف إذا كانت النظرية نفسها مناقضة لبدهيات العقل أو متناقضة في نفسها، أو تقوم على قياس فاسد لا يجوز للعقلاء قبوله، كما هو شأن كافة نظريات الفلاسفة في الغيبيات وفي قضايا الأخلاق والقيم؟؟ لذا نقول إن دعوى إصلاح العقل "الديني" عند الفلاسفة إنما هي في الحقيقة سعي في هدم العقل السوي عند المسلمين، وسلخ لأصحابه منه! نعم قد يحصل في بعض نظريات القانونيين العصريين مثلا أن تجري استدلالاتهم في مسألة من نوازل العصر على قواعد كلية موافقة لقواعدنا، كقاعدة أخف الضررين أو قاعدة تقديم المصلحة العامة على الخاصة عند التزاحم أو نحو ذلك، فهذا نقبله إن قبلناه لأنه يجري، في خصوصه، على قواعد السلف كما هي عندنا! ولكن هؤلاء يريدون إخضاع قواعدنا نفسها للنقد بناء على نظريات الفلاسفة، وهذا ما يقصدونه بالانتقال إلى بيت جديد بمافهيم جديدة وأصول جديدة!

فمهما حدثنا الفلاسفة والمفكرون عن "إصلاح العقل" و"تجديد الدين" و"تجديد الخطاب الديني" وهذه الأشياء، فلا يقصدون إلا إبداله وتغييره بالكلية في الحقيقة، لأن عقولهم وأدواتهم النقدية لم تتأسس على الفطرة السوية وما يوافقها من أصول وكليات النظر العقلي التي كان عليها الصحابة ومن تابعهم، وإنما تأسست على خلاف ذلك كله، ومهما صرحوا بقبول شيء مما في الكتاب والسنة والإقرار بصحته، فإنما يكون ذلك منهم تأسيسا على فلسفتهم لا على الفطرة البشرية السالمة من تلك النظريات كلها! لذا فليس قلب الفيلسوف محلا قابلا للهداية إلى ما عليه أتباع المرسلين في أصول الاعتقاد والعمل، إلا أن يشاء الله! فالحمد لله على نعمة السنة ونعوذ به من كبر هؤلاء! ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦]

يواصل الدكتور في اختراع فرقان بدعي فاسد بين ما سماه على إجمال الفلاسفة "بالإلهي" وما سماه "بالبشري"، فرقان لا حقيقة له في النهاية إلا أن يكون فرقانا بين النص المنسوب إلى رب العالمين وإلى رسوله نسبة الكلام إلى صاحبه، وبين ما يحصل به تبيين ذلك النص عند علماء الملة! يسلك تلك الطريقة المبتدعة حتى يأتي في النهاية ليقول دعونا نرجع لمنابع الدين الصافية، التي هي رسم النص ولفظه وحسب، ثم نجدد كل شيء فيما عدا ذلك! وهذا من أخبث ما أنت راء من صور تبديل الدين! ألا ترى أن النصارى قد تشعبوا إلى كنائس شتى وملل شتى، يكفر بعضهم بعضا، ولا يعد

أهل كل طائفة منهم مخالفيهم من النصارى أصلا، مع أنهم جميعا يتفقون إجمالا على ما بين دفتي ما يسمونه بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد؟؟ فأي شيء كان ذلك إن لم يكن "إصلاحا" للعقل الديني على أيدي فلاسفة تلك الملل؟؟ وكيف يمكن لأعلم علمائهم بذلك الكتاب الذي بين أيديهم أن يرجح دين كنيسته هو على غيره من ملل الكنائس الأخرى والطوائف الأخرى، إذا كانوا فاقدين لتراث يتصل سنده إلى المسيح نفسه وحوارييه المقربين الذين تلقوا عنه دينه عليه السلام، يشتمل لا على كلام المسيح بحروفه وحسب، ولكن على تأويل ما تشابه منه، وبيان كيفية العمل به كذلك؟؟ لولا منهج السلف وفهم السلف الموروث بنصه وأثره وبأدوات ذلك الفهم وآلاته معه، تلك الأدوات التي يريد الدكتور أن يخلعنا منها خلعا، لكنا اليوم على نظير ما يعانيه أهل الكتاب من تكافؤ الأدلة النصية بين أيديهم، فانتبه!

فقول الدكتور "والعقل الديني ليس هو الدين نفسه في نقائه الأصلي، بل هو عقل تكون عبر التاريخ، وإذا كان الدين في نقائه الأصلي إلهيا، فإن العقل الديني هو عقل إنساني يتكون في التاريخ وتدخله عناصر إلهية وعناصر اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها ويتأثر بدرجة وعي الإنسان في كل مرحلة" هذا محض تلبيس! بل العقل الديني هو الدين، فإن كان الدين نقيا كان العقل المؤسس عليه نقيا صافيا، ولم تكن العوامل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .. إلخ، ذات الصلة بتكون ذلك العقل، مفسدة له أو ناقلة له عما ينبغي له أن يكون عليه، بل يكون تعامل ذلك العقل معها كلها على أضبط ما يمليه ذلك الدين نفسه! وأما إن كان الدين محرفا أو باطلا من

أساسه، قائما على عقول الفلاسفة والمتفلسفة الذين بدعوه للناس في عصر من العصور، فإنه لا يكون العقل الديني المؤسس عليه إلا فاسدا ضالا أبعد ما يكون الضلال! ولا يؤسسه هو نفسه – من قبل - إلا عقل فاسد كذلك، فإنه لا يدعي رجل لنفسه الحق في أن يقرر بهواه، استقلالا عما جاءت به الرسل، وبعدما سمع بهم وعلم بمبعثهم، الغاية التي من أجلها وجد البشر في الأرض (فيما يسميه القوم بالأيديولوجيا)، ونمط الحياة الذي به تحصل تلك الغاية للإنسان، إلا صاحب هوى عظيم وفساد في القلب والعقل مبين!

ولعل الدكتور يأتينا هنا بسفسطة جديدة فيقول: أنت تزعم أن العقل يتأسس على الدين، وأما أنا فأزعم، وأهل الكلام معي في ذلك، أن الدين هو الذي يتأسس على العقل، ودليلي في ذلك أن العقل هو مناط التكليف في الشرع! فيقال له: حرر المقصود بالعقل والمقصود بالدين في كلامك يا دكتور تحريرا واضحا قبل أن تطلق ذلك الإطلاق الفلسفي المجمل، المفسد للعقل والدين جميعا! الصحابة رضي الله عنهم كانت قلوبهم سالمة من الأهواء الصارفة، فكانت عقولهم قابلة للمعرفة الدينية الصحيحة لما جاءهم الخبر (خبر الواحد!) بأن الله يريد منهم أن يفردوه وحده بالعبادة وألا يشركوا به أحدا، فلما حصل لديهم التسليم بصحة نبوة محمد ﷺ، وانعقد الإيمان المؤسس في تلك النفوس النقية الطاهرة على الفطرة السوية الصافية، لا على فلسفة فلان أو ميتافزيقا فلان، أخذ النبي عليه السلام في تأسيس آلة النظر والاستنباط في تلك العقول والقلوب الزكية خطوة بعد خطوة حتى تم البناء على أكمل ما يرام! فإن كان المقصود "بالعقل" ذلك القلب النقي السالم من موانع قبول الحق البدهي

الظاهر، الذي تحلى به الصحابة رضي الله عنهم حتى مع ما كانوا عليه من الشرك قبل الإسلام، فهذا نقبل معه أن يقال إن الصحابة قد أسسوا دينهم على "العقل"، وهو اسم العقل الذي لا يوصف به الفلاسفة أصلا! هذا يجب ولا شك أن يكون في نفس السامع من قبل، حتى يقوم الدين فيها قياما صحيحا، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء! وأما إن كان المقصود بالعقل، جملة نظريات الفلاسفة وطرائقهم في القضايا الغيبية والقيمية الكبرى، فما تسميه بالعقل إنما هو محض السفاهة على التحقيق، وليس هو مناط التكليف الذي يسقط التكليف بسقوطه، ولم يحصل لأحد من الصحابة رضي الله عنهم أن أسس إيمانه على العقل بهذا المعنى، وإنما هي طريقة الفلاسفة ومن اتبعهم من زنادقة أهل الملل الكتابية! وأما إن كان المراد "بالعقل" ذلك العقل القادر على الاجتهاد والاستنباط بما يناسب نوازل العصر، فهذا لا قيام له في نفس المسلم في أي عصر من العصور، إلا تأسيسا على ما تعلمه الصحابة رضي الله عنهم من إمامهم ﷺ! وهذا لا يوصل إلى معرفته ولا ترجى معرفته لأهل أي عصر من العصور اللاحقة بزمان التنزيل، إلا بتلك الطرائق التراثية التي أجمعت الأمة على العمل بها في علوم الشريعة! فلا يطالب الناس بتغيير تلك الطرائق نفسها إلا من يدعوهم في الحقيقة لتأسيس عقولهم على دين آخر بالكلية، شعر بذلك أم لم يشعر، فيصبح لكل عصر دين غير الدين، خلاف ما أراده الله رب العالمين!

يقول الدكتور: "وتطوير العقل الديني، بما فيه من مكونات - لعل من أهمها علم أصول الدين الذي شكلته الفرق المتصارعة - غير ممكن بدون تفكيكه،

وبيان الجانب البشري فيه، والعودة إلى الأصول الصافية القرآن والسنة الصحيحة." قلت: وهذا يبين لك أن مقصوده بالعقل الديني يشمل جميع علوم الدين الموروثة كما ذكرنا. فإن كان يقصد بعلم أصول الدين، علم العقيدة والتوحيد كما هو عند أهل السنة والجماعة، فليس بين أهل السنة صراع ولا خلاف في العقيدة وأصول الدين البتة، ولم يقع خلاف أبدا بين الصحابة في شيء من مسائل الاعتقاد، وإنما اختلفوا في بعض المسائل السمعية الخبرية التي هي دون منزلة الاعتقاد! وإنما وقع النزاع والصراع في العقيدة وأصول الدين بينهم وبين مخالفيهم! فما جاء به المخالفون من تصانيف تراثية في أصول الدين (ككتب ما يسمى بعلم الكلام مثلا) فلا ينبغي أن يقال له "علم" أصلا، دع عنك أن يعد في جملة "أصول الدين"، وإنما هو جهل مبين، مهما أبدع فيه أصحابه وأطالوا النفس والحجاج والخصام والتبيين، جهل قد قيض الله للأمة من علماء السنة من يفنده ويبين بطلانه والحمد لله رب العالمين. فما هو تفكيك العقل الديني على هذا المعنى؟ هو هدم علوم الدين كلها، لا سيما أصول الدين الذي "شكلته الفرق المتصارعة"، هكذا، ثم جلوس الفيلسوف على أريكته لاستخراج دين جديد وعلم ديني جديد، من المصحف مباشرة! هذا ما جاء الدكتور يدعو أشاعرة الأزهر إليه، مستندا في ذلك إلى أن الرسول عليه السلام لم يكن أشعريا! ونحن نقول صدقت! ولكنه كذلك لم يكن فيلسوفا، هو ومن تتلمذوا عليه بأبي هو وأمي! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

المهم أن الدكتور يمضي بعد ذلك ليقرر، من هوى نفسه ووهمها، أن تطوير العقل – مع أنه كان قد بين أنه لا يؤمن بتطوير العقل القائلم القديم، فتأمل! – يشمل خمسة "جوانب حاكمة" فيما تشدق به في هذا الذي سماه "بالبحث"، بينها في قوله: "أولا- تطوير العقل النظري، ثانيا-تطوير العقل الديني، ثالثا- تحرير ملكة الوجدان، رابعا-إصلاح طريقة عمل الطاقة الغريزية، خامسا- تطوير العقل العملي."

قلت: هذه الشقشقة لا يخرج منها العقلاء بشيء البتة! بل إن أي تلاعب وتحريف في الدين يتكلفه فيلسوف من الفلاسفة بهواه، أيا ما كان موضوعه، سيجد له ولابد متسعا ليدخله تحت نوع من تلك الأنواع الخمس المتكلفة ولا إشكال! وإلا فما معنى "جوانب حاكمة" هذه أصلا؟؟ وما وجه كونها "حاكمة"؟ حاكمة لأي شيء؟ هل المقصود أنها تفرض قيودا على العقل نفسه، أم تضع شروطا لتجديده المزعوم، أم ماذا؟؟ وما معنى "العقل النظري"، وما الفرق بينه وبين "العقل الديني"؟ وما الفرق بين هذين وبين "العقل العملي"؟ وما معنى الطاقة الغريزية؟؟ وما هي "ملكة الوجدان" هذه؟؟

زخارف لفظية مجملة ورنانة، وشقشقة لفظية لك أن تفهم منها ما يحلو لك! المهم أن تفتح الباب لأيدي الفلاسفة لتعمل في علوم المسلمين عملها، ولا تعترض ولا تقل "من سلفكم في هذا؟" أو "من سبقكم إلى هذا؟"، فتتهم بالجمود وضيق العطن وبلادة العقل، معاذ الله! وبطبيعة الحال فلو سألنا الدكتور هذه الأسئلة، فسيقول: "عليكم بقراءة كتبي ليتبين لكم ما أقصد بكل مصطلح منها"! فإن فتحت كتبه، فلن تجد إلا نظير ذلك بل أشد إغراقا منه في

الإجمال والضياع، والله المستعان! ولا عجب! أم حسبت أن رجلا يبلغ به الكبر والعلو أن يقف أمام جمع من علماء المسلمين في محفل من محافلهم ليقول لهم: "يا علماء الإسلام، دعوا عنكم علومكم الموروثة هذه كلها وخذوا عني أنا ما تصلحون به عقولكم، إن أردتم أن يكون لكم مكان بين أهل هذا الزمان"، يتركه رب العالمين دون أن يفضحه فضيحة تليق به وبأمثاله، ولو بعد حين؟؟! لا والله! سنة الله ماضية فيه كما مضت في أمثاله، ولن تجد لسنة الله تبديلا!

يمضي الدكتور تاركا تلك "الجوانب الحاكمة" كما سماها بلا تفصيل ولا بيان، ثم يتكرم علينا بسرد جملة نقاط قال في التقديم لها: "ومن أهم الشروط القبلية لتكوين عقل ديني جديد"، فإن كان المقصود بالقبلية، A-Priori على اصطلاح الفلاسفة، أي التي تعرف صحتها بمجرد سماعها، معرفة جازمة منصرمة، فدعونا ننظر أي شروط قبلية تلك ومن أين جاء بها!

يبدأ الدكتور بنقل جزء من محاضرة من محاضراته، على ما يبدو، في مفهوم "منهجية التفكير"، يقرر أن الإرهابي الداعشي و"الشخص الذي يفكر بطريقة سليمة" لن يستعملا أدوات التفكير نفسها بنفس الطريقة! وهذه قضية مسلمة لا يتطرق إليها النزاع، وإنما ننازعك يا دكتور في ماهية الطريقة السليمة! يقول: "فالفكرة الإيجابية التي يستقبلها صاحب طريقة التفكير السليمة سوف تجعله يصل إلى نتائج وأفكار تنمية، وتطور، ومشاركة اجتماعية، وروح الفريق الواحد...إلخ" قلت: كل واحدة من هذه الثمرات التي سلمت بحسنها وسلامتها و"إيجابيتها" لا نقبلها من أمثالك حتى تفصل فيها ما يندفع به الإجمال!

فالفلاسفة لا يجري لديهم شيء من تلك المصطلحات الجذابة "التنمية" و"التطور" و"المشاركة الاجتماعية" و"روح الفريق الواحد" وغير ذلك، إلا على نظرياتهم هم، وعلى فلسفاتهم القيمية التي جاؤوا بها من أهوائهم، كما هو معلوم!

ونقول: سلمنا يا دكتور بأن العقول المترطفة لن ينتج عنها في التفكير إلا الشر والدمار والدم. فما هو المخرج وما العلاج لتلك العقول إذن؟

يقول: "إذن لابد - أولًا- من فتح العقول المغلقة وتغيير طريقة المتعصبين في التفكير. فلن تستطيع أن تجعل إنسانا متسامحا وهو يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة ويجزم بأن الآخرين على باطل، ولن تستطيع بث أفكار عقل مفتوح في عقل مغلق. فالعقل المغلق ليس مجهزا لاستقبالها مثلما أن التلفاز الأبيض والأسود ليس مجهزا لاستقبال محطات البث الفضائي HD ."

قلت: فالعقول المغلقة، على حده، التي هي نفسها العقول "المتعصبة في التفكير"، هي تلك التي يعتقد أصحابها أنهم يملكون الحقيقة المطلقة ويجزمون بأن الآخرين على باطل! ولا نجد بدا في هذا المقام من أن نسأل الدكتور: هل تؤمن يا دكتور إيمانا جازما بأن التوحيد حق مطلق، وبأن الشرك الذي عليه الوثنيون الهندوس عبدة البقر، مثلا، أو ما عليه القائلون بالثالوث، أو حتى مشركو قريش عبدة الأصنام، باطل مطلق؟؟ سنعلق على الإجمال الفاحش في لفظة "مطلق" هذه فيما بعد، لكن دعنا أولا نسألك هذا السؤال، مستعملين اللفظة نفسها تنزلا! فإن كان جوابك "نعم، أؤمن بذلك وأجزم به جزما منصرما لا يرد عليه احتمال البطلان عندي"، بطل بذلك تشخيصك لآفة تلك

العقول التي سميتها بالمغلقة والمتعصبة، لأنك بذلك تكون أنت نفسك صاحب عقل مغلق متعصب، وما كنا لنأخذ العلم بعلاج العقول من رجل فاسد العقل! وإن أجبت بلا، حكمت على نفسك بالخروج من تلك الملة التي تزعم أنك مؤمن بها، وأنك تريد إصلاح عقول المنتمين إليها حتى يستقيم أمرهم فيها على الدين الصافي من الكتاب والسنة! ذلك أن المعرفة بأن الإسلام حق محض وبأن جميع ما يخالفه من الملل باطل محض، تعد من كبرى ضروريات الملة التي لا يجيز منتسب إلى الإسلام ورود المعارض عليها، ولو بأدنى درجات الاحتمالية، إلا خلع ربقة الدين من عنقه قولا واحدا!

والقصد أن هذا الكلام في غاية الفساد، وحقيقته اتهام كل من يجزم ببطلان أي دعوى، أيا ما كانت، بأنه متعصب منغلق، مصاب بمرض في طريقة تفكيره! ولهذا أفحمه الشيخ الطيب في رده عليه، عندما قال ما معناه: "هل هذا الكتاب الذي أهديته إلي، أنت تجزم بصحته، وبطلان ما يخالفه؟ إن كنت تجزم فقد هدمت مذهبك، وإلا فلا تهده إلي حتى تتأكد من بطلان ما يخالفه"! ولأن الدكتور الخشت فيلسوف متمرس، استطاع أن يشغب على الشيخ الطيب ويسفسط عليه مستعملا الإجمال الفاحش في لفظة "مطلق" التي استعملها في مقالته أو بحثه ذاك، وفي كلمته التي ألقاها من فوق المنصة! فقال إن المطلق في الاصطلاح ضده النسبي وليس الشك! فالذي كتبه في كتابه هو الحق بالنسبة إليه هو، وقد يكون باطلا بالنسبة إلى غيره، وليس هو أمرا مشكوكا فيه عنده كما اتهمه به الشيخ! ثم عرض في كلامه بأن هذه مسألة ما كان

ينبغي لرجل كشيخ الأزهر أن يقع فيها، وقد كان هو الذي "علمه" وغيره الفلسفة!

قال الدكتور: "طيب هل المطلق عكسه الشكي؟ أبدا يا فضيلة الإمام! أنت علمتنا في الفلسفة إن المطلق عكسه النسبي! مش الشكي يا فضيلة الإمام! أنت أستاذنا في الفلسفة! فهل كتابي يقين مطلق؟ طبعا لأ! هل كتابي مشكوك فيه؟ بردو لأ! لكن ده اجتهاد بشري، قابل للصواب والخطأ! يصيب ويخطئ! ما كلنا بنجتهد بشريا! وكلنا نصيب ونخطئ!"

قلت: يقول إن المطلق عكسه النسبي في الفلسفة، وهذا تحكم منه في الاصطلاح، لأن كلا المصطلحين باقيان على إجمالهما حتى يقع التفصيل! وليس عند الفلاسفة الذين ينتسب هو إليهم، ويزعم أن الدكتور الطيب قد علمه طريقتهم، إجماع على ذلك الاستعمال للفظة مطلق ولا للفظة نسبي، ولا محل عندهم لمبدأ الإجماع نفسه كما يعلم ذلك علم اليقين! إن كان عند الفلاسفة إجماع على شيء، فإنما هو الإجماع على ألا يتفقوا على شيء البتة، وعلى عدم قبول دعوى الإجماع من أصحابها أبدا! وهذا تناقض في نفسه كما هو ظاهر، لكن القصد أنك لم تأت بما ينقض على الشيخ الطيب كلامه بجوابك هذا كما تزعم! فالشيخ حين ألزمك بأن كلامك في كتابك ليس على شرطك، أراد أن ينبهك إلى أنك ما كنت لتقبل فيه من اختلاف الناس على فهمه، ما جوزته بل زكيته وشجعت عليه في فهم نصوص الكتاب والسنة، لأنه إذن لا يحصل لهم من الانتفاع به ما كنت ترجوه!! المقصود من الإلزام هنا، هو أن كلامك هذا إما أن تكون مؤمنا بأن له مرادا حقا هو ما لأجله كتبته وأردت أن

يفهمه الناس، وأردت أن يكون مفهوما للجميع عبر العصور على نفس الفهم، وإما أنه عندك مجرد ثمرة اجتماعية لظروفك أنت وظروف مجتمعك، اتفق لها أن خرجت على نحو ما خرجت عليه بسببها، فلا يعنيك كيف يفهمها الناس من بعدك بل ولا يضيرك أن يأتي عصر من العصور يفهم الناس فيه كتابك على نقيض ما قصدته أنت منه! ليس المقصود أنك متشكك فيما تكتب يا دكتور، بمعنى أنك لا تراه حقا في نفسه، أو لا ترى ورود الخطأ عليه، وإنما المقصود أن مفهوم الحق الواحد (الذي تسميه أنت بالمطلق) الذي أسست مذهبك على تعديده في نفس الأمر على طريقة فلاسفة ما بعد الحداثة وسفسطتهم في نسبية الحقيقة، هذا يلزمك من صنيعك به ألا يكون لكلامك أنت في الكتاب أي قيمة معرفية البتة، ولا أن يكون فيه ما يرفعه على خلافه ونقيضه عند التحقيق، لأنه إذا كان الحق متعددا، فليزمك اعتقاد أن بطلان كلامك حق، كما أن صحته كذلك حق، وإذن فلا نقبل منك كتابك هذا ولا غيره حتى تشهد بأنك ترى ما يخالفه باطلا، فافهم!

ثم إننا لا يكفينا منه أن يقرر أنه يرى أن ما يخالف كتابه خطأ يحتمل الصواب! فالذي يزعم الدكتور أنه قد حرره في كتابه ذاك، يُفترض فيه أنه تحقيق الطريق العقلي الذي به يصل المسلمون إلى تصفية الاعتقاد والعمل مما يشوبه من أغلاط بشرية، ومن أمور نشأت عن أسباب سياسية واجتماعية وكذا، وليس عن علم صحيح بمراد الرب مما أوحى به إلى رسوله! فإذا كان ذلك كذلك، فلا يجوز أن يكتفى فيما يحصل به ذلك المطلوب العظيم لدى القارئ: إعادة تأسيس المعرفة الدينية نفسها وجميع علوم الشريعة بداية من

أصول الدين كما قال، بكلام غايته عند صاحبه أن يكون رأيا يرد عليه المعارض واحتمال الفساد!! الله تبارك وتعالى لا يقبل إيمان المتشكك، وإنما يقبل القطع المنصرم في النفس، الذي لا يرد عليه احتمال الزوال أبدا ما دام المسلم حيا! تعبدنا ربنا بألا نموت إلا مسلمين قاطعين غاية ما يكون القطع في صحة دين الإسلام، كما في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] نسأل الله ذلك، لا أن نكون كالذين قال فيهم سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢]! فإن لم يكن هذا هو ما أنت عليه يا دكتور، فراجع إسلامك، فالموت يأتي بغتة، وليس بعده من رجعة!

لهذا لا يقبل منك عاقل من عقلاء المسلمين، يا دكتور، فضلا عن عالم من علمائهم، أن تجمع له بين دفتي كتابك ذاك ظنا ورأيا محتملا من هنا وهناك، ثم تزعم أنه يكفي لتحقيق مطلوبك ودعوتك العريضة تلك، التي جئت تدعو علماء المسلمين لأخذها عنك، حتى يقيموا عليها دينهم كله، أصوله وفروعه، عقائده وأحكامه، علمياته وعملياته! لسنا فلاسفة ولا نأخذ ديننا عن الفلاسفة يا دكتور!

نحن أهل السنة لا نجد مستندا أوثق ولا أثبت معرفيا في ذلك من إجماعات السلف، تلك الإجماعات الصارمة التي لولاها ما كنا اليوم مسلمين، ولما

عرفنا الإسلام أصلا! وأنت تريد أن تقنعنا بأنها لا اعتبار بها، وأن التمسك بها تعصب وتقليد! فإذا كان اليقين المنصرم ممتنعا في أصل مذهبك في أي مسألة من مسائل العلوم أيا ما كان موضوعها، فلا حقيقة لمسعاك إذن إلا إحالة المسلمين من يقين المؤمنين إلى تشكك الفلاسفة! لذا حق لنا أن نقابلك بمثل ما قابلك به شيخ الأزهر بقوله ما معناه: إذهب أنت "تشكك" بكتابك هذا ما شئت بعيدا عنا، ثم إن انتهيت إلى شيء تثبت عليه، فتعال وقدمه لنا حينئذ لا قبل ذلك!

يقول الدكتور تقرير مذهبه الرديء في نسبية الحقيقة، فيقول:

لن تستطيع أن تجعل طائفة متسامحة وهي تعتقد أن الكون يقوم على لون واحد وليس ألوانا متعددة، ولن تستطيع أن تقنع إنسانًا بالتسامح وهو يعتقد أن الله يريد أن يكون الناس كلهم نسخًا من بعضهم البعض، أو أن مشيئة الله تعالى تريد الناس متطابقين وليسوا مختلفين. ولن تستطيع أن تؤثر في إنسان يعتقد أنه مفضل عند الله على العالمين لمجرد نطقه وتلفظه ببعض الكلمات، أو لمجرد ولادته ضمن طائفة معينة.

قلت: ما معنى التسامح عندك يا دكتور، وبأي برهان جعلته قيمة عليا يجب علينا جميعا أن نعمل من أجل أن نحققها؟ وما بال من يخالفونك في ذلك المعنى نفسه، هل "تتسامح" أنت معهم؟؟ ثم ما معنى قيام الكون على "لون واحد" هذه؟ ثم من الذي قال إن الله يريد من الناس أن يكونوا كلهم نسخا من بعضهم البعض؟؟ هذا لا يقول به مسلم البتة، لا في إرادة الله الكونية ولا الشرعية، بل والله لا يقول به حتى المتطرفون في داعش، لا به ولا بما

يقتضيه! هذه يا دكتور يقال لها عند المناطقة الجدد مغالطة مهاجمة خيال المآتة Strawman Fallacy، وحقيقتها تصوير موقف المخالف (وهو في هذه الحالة جميع علماء المسلمين على اختلاف طوائفهم!!) تصويرا كوميديا مخالفا لما هو عليه في الحقيقة، حتى يسهل نقضه وتسخيفه! إن كان المقصود بكون الناس نسخا من بعضها البعض، أن ينعدم بينهم الخلاف في الكلية وأن يتفقوا في كل شيء، فهذا محال، وليس هو من مقاصد التشريع الإلهي، لأن الله لا يكلف الناس بالمحالات!

فالله تعالى عندما يرسل الرسل إلى أمة من الأمم يدعوهم ليكونوا أتباعا لهم خاضعين منقادين لما جاؤوا به من العقيدة والشريعة تمام الخضوع والانقياد (الذي هو ركن من أركان الإيمان)، متبرئين من جميع ما يخالف ذلك ضرورة، فلا يصبحون بذلك "نسخا متطابقة"، مهما أطاعوا وخضعوا وانقادوا، ولا ينتهي بهم الحال إلى ارتفاع الخلاف من بينهم بالكلية! وإنما يمن الله عليهم منة عظيمة، إذا ما اتقوا وآمنوا، بأن ينحصر الخلاف والنزاع بينهم فيما يمكن التسامح والتساهل فيه، ولا يترتب عليه ما يدعو إلى البراء والمفاصلة والهجر والمشاححة! يمن عليهم بأن يؤلف بين قلوبهم بتساويها في مصادر تلقي الإيمان والاعتقاد، وفي أعظم ما يحتاج الإنسان لتحقيق العلم به من أجوبة للأسئلة الوجودية الكبرى، وفي جميع ما لا يستقيم للإنسان عقل ولا نفس إلا بعقد النفس على اليقين فيه، وفي أصل مبدأ إخضاع النفس في كل عمل لمراد رب العالمين! فلا يكون في معارفهم ولا في نفوسهم شيء أثبت ولا أرسخ من أدلة وأسباب التسليم بتلك الأصول! وهذه، بعد أسباب النجاة في الآخرة لكل مسلم، هي الرحمة الكبرى التي بعث بها الرسول عليه

السلام إلى العالمين! وأما ما دون ذلك من أنواع المسائل، فيتعلمون في الشريعة نفسها أن الخفاء قد يدخل على أدلته، وأن الخلاف فيه لا يجوز أن يفسد للود والولاء الشرعي قضية!

ثم إنهم يجدون في شريعة الإسلام ما لا يحصى من الأحكام التفصيلية للموقف الصحيح، في الولاء والبراء، من المخالفين على اختلاف أنواعهم ومواطن الخلاف معهم! فليس كل مخالف من المسلمين يستساغ خلافه وينتهى عن النكير عليه، وليس كل صاحب خلاف غير مستساغ ممن ينكر عليه، يشرع هجره أو بغضه، بل ليس يلزم من محبة المسلم التي يوجبها له أصل إسلامه، ألا يبغض لمعصيته وفسقه بحسب ذلك! وليس كل صاحب خلاف موجب للبغضاء والبراء، يحل هجره أو تهجيره ونفيه من الأرض أو التعرض له بالأذى في النفس أو في المال، وليس كل من يشرع هجره ومفاصلته يحل قتاله، وليس كل مخالف في الدين ممن يحل قتاله يستحل دمه ويحل قتله، بل وليس كل كافر محارب حلال الدم تحل مبادأته بالقتال، أو يقتل في أي حال! هذه مسائل دقيقة تجد تفصيلها في عشرات بل مئات الأبواب الفقهية في كتب العلماء، المستند في كل باب منها إلى النص والأثر وفهم الصحابة والتابعين له وعملهم به، كما لا تجد له نظيرا في تراث أي ملة من الملل!

وهذه هي حقيقة التسامح مع المخالف الذي جاء به الإسلام! لابد من ذلك التفصيل الدقيق، ولابد أن يتعلمه المسلمون وأن يتربوا عليه! ليس التسامح أن يكون المخالفون كلهم سواء في قبول خلافهم والسكوت عليه، كما يتمناه الفلاسفة ويطمعون فيه حتى يتترسوا لزندقتهم به بين المسلمين من غير أن ينكر عليهم أحد، بدعوى أن الله لا يريد من الناس أن يكونوا "نسخا متطابقة"،

أو بدليل أن بصمة كل إنسان ليست كبصمة غيره، كما في ذلك القياس الاختزالي السخيف الذي ذكره الدكتور في كلمته الأخيرة في ذيل الجلسة! ليس التسامح الذي جاء به الإسلام هو أن نعلم أولادنا أن الخلاف خير، وأنه كلما ازدادت مواطن الخلاف فيما بينهم، كان في ذلك تحقيق الرحمة بالناس! ولا أن نعلمهم، كما صرح الدكتور بمعناه، أن المتشابهات في القرآن إنما جعلت كذلك لأن من مقاصد التشريع أن يتنوع الناس في الدين، وكأن الله تعالى لم يقل في القرآن نفسه: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ ﴾ الآية [آل عمران : ٧]، وإنما جعل المتشابه ليبتلى المسلمون بحمله على المحكم كما علمهم رسولهم ﷺ وكما كانت طريقة تلامذته رضي الله عنهم وأرضاهم!

فليس الخلاف خيرا أبدا، بل هو شر وإن رغمت أنوف الفلاسفة! وهو شر مخلوق لخير أرجح منه في علم الله تعالى. فالذي يخالف في أصول الدين وينابذ المسلمين، يكون في ابتلائهم به خير لهم لا يحصيه إلا الله تعالى، إن صبروا عليه وعاملوه كما جاء به الشرع، وإن كان الخلاف نفسه شرا! والعالم المجتهد الذي يخالف في المسائل الاجتهادية، يكون في ابتلاء الناس بخلافه خير لهم من حيث تكليفهم بموادته والصبر على خلافه والتماس العذر له يوم القيامة بأنه كان طالبا للحق وبأن لديه شبهة دليل، وإن كان لم يرزق الأجران كما رُزقهما المصيب! والعامي المخالف في المسائل الخلافية يكون في ثبوت الخلاف بين العلماء فيها خير له من حيث سلامة غيره من المسلمين

من وجوب أن ينكروا عليه، وإن كان مجرد وجود الخلاف نفسه أمر كريه لا يريده العقلاء ولا يحبونه!

فالخلاف من أنواع الشرور التي اقتضت حكمة الباري جل شأنه وجودها في العالم ابتلاء واختبارا، كما يبتلى الناس بالأسقام والأوجاع والأمراض أشكالا وألوانا، فإن هم صبروا وأحسنوا العمل كان لهم في ذلك خير عظيم! فهو من إرادة الله الكونية لا الشرعية، وهذا تفريق مهم لا يعقله الفلاسفة المنتسبون إلى القبلة ولا يستسيغونه! فصحيح إن الإسلام لم يكلفنا أن نكون سواء في كل رأي وفي كل شيء، وما كان ليكلفنا بذلك لأنه مما لا يطاق، ولكنه كذلك لم يرغبنا في الخلاف ولم يحببنا فيه ولا في نشره بين المسلمين، وإنما علمنا أن الاختلاف سنة كونية ماضية، علينا أن نتعلم من الشرع كيفية التعامل معها، في كل حالة بحسبها! علمنا أن لكل إنسان منا وجهة هو موليها، وأن كل امرئ ميسر لما خلق له، ولكنه مع ذلك قال سبحانه: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] فمن المقاصد العليا لبعث الرسل والنبيين تضييق الخلاف لا توسعته! وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ

النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : ١١٩] [هود : ١١٨]

فالأصل في بني آدم ابتلاؤهم بالاختلاف في كل شيء، حتى في القول بوجود الله سبحانه! هو خلقهم ليبلتيهم جميعا بالخلاف ثم ليرحم منهم من يشاء! ولهذا استثنى سبحانه من رحمهم من أولئك الذين لا يزالون مختلفين، لأن المؤمن يسلم بإيمانه من الخلاف الذي يهلك صاحبه في الآخرة، ويتعلم الموقف الشرعي الصحيح من كل مخالف بحسبه! ولو كان الخلاف في الأصل خيرا ورحمة، ما كان من وجه لأن يرسل الله الرسل والنبيين ليبين للناس ما اختلفوا فيه، وهذا واضح!

فعندما يأتي فيلسوف متحذلق ليقول، هكذا "بجرة قلم" كما يقولون، ما حاصله أن الخلاف خير والتسامح في الإسلام يقتضي تزكيته وإنماءه والسكوت عليه في كل حال، بدليل أن الله لم يأمرنا بأن نكون نسخا متطابقة، وأن أصابع يدك ليست كبعضها، أو أن بصمة يدي ليست كبصمة يد شيخ الأزهر، فهذا سخف وجرأة على الشرع لا يقرها عقل ولا دين، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولابد هاهنا من أن نوجه السؤال الصريح للدكتور فنقول: هل ترى يا دكتور أن المسلم لا فضل له على الكافر؟؟ هل ترى أن "مجرد نطقك" بكلمة التوحيد، لا يجعلك أفضل عند رب العالمين ممن أبت عليه نفسه أن ينطق

بها؟؟ هل ترى أن مجرد مولدك بين المسلمين ونشأتك على دين رب العالمين، لا تجعلك أفضل، بفضل الله ومنته، ممن نشأ على أي ملة أخرى، تحت يد أبوين يُهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؟؟

هل الإسلام والكفر في دينك سواء يا دكتور؟؟ نسأل الله السلامة والعافية!

ثم يقول الدكتور تأسيسا على ما تقدم:

إذن لابد من العمل على تغيير رؤية العالم وتجديد فهم العقائد في الأديان. ولن تتغير رؤية العالم إلا إذا جعلنا الكون نفسه كتابا مقدسا واحدًا مشتركًا بين الأديان المختلفة كتبها المقدسة، فإذا كانت الكتب المكتوبة المقدسة متنوعة بين الأديان، فإن هناك كتابا مقدسا لا يجب أن يختلف عليه اثنان، وهو الكون نفسه بوصفه صناعة إلهية. وأعمال الله البادية في كتابه الكوني تكشف عن التنوع والتعددية إلى مالا نهاية بقدر اتساع الألوهية إلى ما لا نهاية. ولا توجد في هذا الكتاب الكوني مخلوقات أو ظواهر تشكل نسخا واحدة متطابقة بدرجة مائة في المائة؛ مما يدل على أن التنوع والاختلاف والتعددية هي الأساس في الكون. ولا شك أن قوانين الله في الطبيعة تقوم على التنوع لكن لا يوجد قانون يعارض قانونا آخر، كلها تعمل في منظومة نسقية خلاقة.. (وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) سورة النحل: آية ٨.

قلت: هذا الذي يسميه الدكتور برؤية العالم World View تقليدا للفلاسفة المعاصرين الذين تشبع بنظرياتهم، هو مجمل الاعتقاد الغيبي وما يترتب عليه من مواقف وغايات عند الإنسان! فعندما يقال لمسلم إن المطلوب منه أن يزول عن عقيدة المسلمين التي ورثوها عبر القرون، بدعوى "تجديد فهمها"،

فكيف يقبل ذلك ممن يدعوه إليه كائنا من كان، وأيا ما كان ما جاء به؟ أفنؤمر بالزندقة والضلال ونسكت؟؟ أحقا كان الدكتور يتوقع أن يرمي بضلاله هذا بين يدي شيخ الأزهر ولا يرد عليه؟؟ ما هذا؟؟! وأي وظيفة تبقى للأزهر ولشيخه إن لم يقف ذلك الموقف؟؟ يأتيه من يطالبه بالانسلاخ من الدين بدعوى تجديده، ثم يتوقع منه أن يبتسم ويطأطئ رأسه ويصفق ثم يمضي وكأن شيئا لم يكن؟؟

بالله ما الذي نخرج به من قوله: "ولن تتغير رؤية العالم إلا إذا جعلنا الكون نفسه كتابا مقدسا واحدًا مشتركًا بين الأديان المختلفة كتبها المقدسة، فإذا كانت الكتب المكتوبة المقدسة متنوعة بين الأديان، فإن هناك كتابا مقدسا لا يجب أن يختلف عليه اثنان، وهو الكون نفسه بوصفه صناعة إلهية"، إلا أن يكون دعوة لتوحيد الأديان وصهرها في بعضها البعض في دين واحد؟؟ ما معنى أن نغير (والمخاطب هنا هو جميع البشر من أهل الأديان كلها) رؤيتنا للعالم بأن نتخذ من الكون كتابا مقدسا نتفق جميعا عليه؟؟ ثم إن الرجل يتناقض بذلك أعظم التناقض! ألم يقرر من قريب أن الاختلاف ضرورة وأن الحفاظ عليه وإبقاءه بين الناس مقصد ديني؟ فما باله الآن يريد أن يرفعه من الأرض بأن يجمع أهل الملل كلها على "رؤية للعالم" مفادها كذا وكذا؟؟ سبحان الله!

ثم في أي دين يا دكتور يقال في الكون إنه "مقدس"؟؟ هذا لا نجده إلا في ملل الوثنيين القائلين بوحدة الوجود، وبأن الله والكون شيء واحد! فهل هذا ما تدعونا إليه؟

والله لقد حق للمسلم العاقل أن يضحك من استدلالات هؤلاء بالقرآن والسنة واستشهاداتهم بهما! تأمل كيف ختم الدكتور تلك البائقة التي سطرها في تلك الفقرة بآية من سورة النحل لا علاقة لها من قريب ولا من بعيد بشيء مما قاله فيها، لمجرد أنه أشار في ذيل الفقرة، في قياس واه لا قيام له بمطلوبه، إلى أن في الكون قوانين تعمل في تناسق وتناغم على الرغم من "اختلافها"، على نحو لا تدركه عقولنا!! وكأن الرجل استشعر أن الملأ الذين أراد أن يلقي بهذه الطوام بين أيديهم يتوقعون أن يسمعوا آية أو حديثا في أثناء الكلام، على أساس أنه يخاطب علماء الأزهر وكذا، فلم يجد إلا أن يسوق إليهم هذه الآية في هذا الموضع!! فصدق القائل: شر البلية ما يضحك!

يواصل الدكتور تأسيس ذلك القياس السخيف فيقول:

وبقدر ما في الكون من تعددية يكون اتساع عظمة الخلق الإلهي، وبقدر ما في الوجود من تنويعات لا حصر لها يكون تنوع إبداع الألوهية اللامتناهي. وبالمِثل – ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وما خارجهما – يمكن التأكيد أنه بقدر ما يكون في المجتمع من انفتاح وتنوع واختلاف تكون قوة المجتمع وتكون قوة الدولة ويكون ارتقاء الشعب وتقدمه، بشرط قدرة المجتمع على "إدارة الاختلاف" في منظومة نسقية خلاقة.

قلت: خلاصة الكلام أنه بما أن الكون تتعدد فيه المختلفات والمتنوعات أعظم التعدد وأوسعه، إذن يجب أن نكون نحن المسلمين كذلك عند الغاية من الانفتاح والتنوع والاختلاف، لأن هذا مما تظهر فيه القدرة الإلهية! أم تريدون

أن تغضوا من القدرة الإلهية أو تخفوها عن الناس؟؟ لا أدري والله أأضحك أم أبكي من منطق من جاء يطالبنا "بتجديد العقل الديني"!!

ينتقل الدكتور بعد ذلك لبيان بعض مساعيه "الإصلاحية" في جامعة القاهرة، التي أذن الله تبارك وتعالى أخيرا بفضله ومنته أن تنكشف حقيقتها ووجهها الخبيث للقاصي والداني، وعلى يد شيخ الأزهر شخصيا! ويقول إن الناس كانوا منها على فريقين، فريق يريد "تقليد الماضي" مطلقا، وفريق يريد تقليد الغرب مطلقا:

فالمسألة أصبحت (إما... أو...)، فأنا أرى أنه لا الشرق وحده ولا الغرب وحده، طريق النهضة، لأن فكرة التقليد نفسها هي فكرة مرفوضة. فكل عصر له ظروفه، وله معادلته، وله خصائصه. فالقرآن الكريم عندما يتكلم: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ"(غافر:٨٢) لم يكن يقصد الأحداث، بل يقصد منطق التحول التاريخي.

قلت: فعلماء الأمة إذن كلهم عنده من الفريق الأول، فريق "ظلام من الغرب"، الذي يدعو إلى "تقليد الماضي"! فهل يا عقلاء المسلمين، يصح أن يقال إن من يدعو لإرجاع المسلمين إلى ما كان عليه سلفهم في الدين، وإلى البراءة من فلسفات الكفار والملحدين الغربيين، إنما يدعوهم بذلك إلى "تقليد" السلف؟؟ أهذا كلام من يعقل ما التقليد أو يدري ما يخرج من رأسه؟ ثم كيف يقرر أن القرآن قصد كذا ولم يكن يقصد كذا، ثم يرجع ليطالبنا بما سماه بتعددية الحق كما سيأتي؟ لو صدقت لقلت إنه يقصد ذلك المعنى وخلافه معا، بل ويقصد كل معنى فهمه منه أحد من الناس مهما كان أعجميا جاهلا! العاقبة

التي أمرنا بأن ننظر في الأرض كيف كانت للسابقين يا دكتور، إنما هي حقيقة زوالهم وزوال آثارهم وديارهم التي زعموا في كبرهم وعلوهم أنها لن تزول! فتكون ثمرة ذلك النظر أن نتعظ وأن نعتبر بما كان من هؤلاء، فننزجر عما كانوا عليه من الكبر والتكذيب بالرسالات والنبوات، وكأن الذي خلقهم ورزقهم بما علو به في الأرض لا يقدر على أن يأمر الأرض فتبتلعهم! أين هم الآن وأين سلطانهم وأين ممالكهم وعروشهم؟؟ أزالها الله كما أزال غيرها من قبلها، وكما يزيل غيرها من بعدها، ولم يعجزه ذلك، فاعتبروا يا أولي الألباب! هذا هو المراد، وهو واضح لمن رزقه الله أدنى قدر من الفهم لسياق القرآن ولموضوعه الذي نزل في بيانه، وللهداية التي جاء بها! والله حتى أجهل الناس بلسان العرب وأغرقهم في العجمة يفهمون هذا، ولكن لله في قلوب عباده شؤون!

قال الدكتور في كلمته الأخيرة التي رد بها على شيخ الأزهر في الجلسة:

فيه فرق بين "إما .. أو"، "إما (......) معنا أو ضدنا" هذه تفكير أرسطي، القائم على الفصل الإبستمولوجي بين بديلين، والإسلام لا يقوم على الفصل، إما .. أو، "وإنا لا ندري أإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين" من قائل هذه العبارة؟ أنا عايز أسمع! ومن قال: "الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم"، طبعا هايقول لي يا دكتور خشت ذاكر كتب التراث، هاتجد المفسرين بيقولوا: الظن هنا بمعنى اليقين! وأنا أسأل لماذا لم يستخدم ربي لفظ يوقنون أنهم ملاقوا ربهم؟ يظنون أنهم ملاقوا ربهم!

قلت: من الذي قال إن مبدأ التفريق بين بديلين هو مبدأ أرسطي؟؟ التفريق بين الصواب والخطأ وبين الحق والباطل، هو تفكيرك أنت شخصيا يا دكتور، بدليل أنك رفعت عقيرتك في تلك الليلة بتخطئة جميع علماء المسلمين بلا استثناء!! وإلا فإن كانوا في نظرك على صواب، فما فائدة ما كتبت وما وقفت حيث وقفت لتدعو الناس إليه؟؟ قولك "الإسلام لا يقوم على الفصل: إما .. أو"، هذا ينقض الغاية التي من أجلها بعث رسول الإسلام بالإسلام من الأساس!! كان الناس في شرك وضلال، فبعث الله رسولا يدعوهم للتوحيد، فإما أن يموتوا موحدين فينجوا في الأخرة، أو يصروا على البقاء على شركهم فيهلكوا! فما رأيك في هذا الكلام يا دكتور، تقبله أم ترده؟؟ المرؤ منا يحاسب يوم القيامة فإما أن يخلد في الجنة أو يخلد في النار، فما رأيك في هذا يا دكتور؟ تقبله أم ترده؟؟ سبحان الله العظيم! ثم يأتي الرجل بتحريف صريح لكتاب الله تعالى فيقول "وإنا لا ندري أإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين"، ويسأل متحديا: من قائل هذه العبارة! ونحن نجيبه ونقول: أنت قائل هذه العبارة، ولم يقلها أحد قبلك!

وأما كلام رب العالمين فيقول جل شأنه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤]!

فصدر الآية الذي حرفته وبدلته، ليس فيه أننا لا ندري!! كيف لا ندري ونحن نزعم أن الكتاب الذي جئناكم به هو طريق الهداية الذي أنزله الله تعالى رحمة للعالمين؟؟ أهذا كلام عقلاء؟؟ الآية تبدأ بأمر النبي عليه السلام بأن يسأل المشركين سؤال تقرير، لا سؤال استفهام أو استعلام: من يرزقكم من

السماوات والأرض، ثم يأمره بأن يجيب فورا بقوله: الله! هذا هو الحق الذي تعلمونه يا هؤلاء فلا تكابروا، فقد علمتم أي الفريقين منا على الهدى وأيهما على الضلال المبين! هذا هو معنى الآية، وليس إننا لا ندري أينا على الهدى وأينا على الضلال!! ما فائدة القرأن إذن؟؟ سبحانك ربي!

وأما قوله تعالى ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ الآية، فعند العرب يأتي الظن بمعنى العلم الجازم، كما يأتي بمعنى الشك والوهم.

ولهذا شواهده فيما يؤثر عن شعراء الجاهلية،

قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم : ظُنوا بألفي مدجج ... سراتُهُمُ في الفارسي المسرد

وقال أوس بن حجر:

فقومي وأعدائي يظُنُونَ أنني ... متى يُحْدِثوا أمثالها أتكلَّمِ

فلماذا أحلناك على كتب التراث في هذا يا دكتور؟ لأن اللغة التي بها تكلم رب العالمين في هذه الآية التي استدللت بها، لا يؤخذ العلم بها من سماع المعاصرين والتعرض للغاتهم، وإنما تؤخذ من بطون كتب التراث التي حفظتها لنا بفضل الله ومنته! فعندما يعترض على هذا التراث بإيراد بارد سخيف، ويقال: لو كان يريد اليقين، لقال: "تيقنوا أنهم ملاقوا ربهم" ولما قال "ظنوا"، فهذا افتيات على رب العالمين! إذا كان هذا مما عرفه العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فلا وجه أصلا لأن يقال "لو أراد اليقين لقال تيقنوا"، ولا أن يقال إنه لو كان المراد اليقين لكان من البلاغة أن يقول "تيقنوا"، لأنه ما به يزول اللبس والاشتباه! فالاشتباه أنت من تعاني منه لعجمتك أولا،

ولفلسفتك النسبية الفاسدة التي تريد أن تحشرها في كتاب الله حشرا! وإلا فليس من عقلاء المسلمين من ورد بخاطره يوما من الدهر عند سماع هذه الآية أن المراد من قوله تعالى "الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم" هو ما تريده أنت من الاعتقاد غير المنصرم، الذي يدخل في معنى الشك المنهجي (أي اعتقاد جواز ورود المعارض عقلا، ومن ثم جواز الزوال عن ذلك الظن في يوم من الأيام!)! لا يكون المسلم مسلما أصلا حتى يجزم جزما صارما يعقد العزم على ألا يموت إلا عليه، بأنه ملاق ربه جل شأنه بعد موته، فكيف يرد معنى الظن الذي تريده أنت على هذه الآية أصلا، حتى يقال إنه لو أراد معنى اليقين هاهنا لقال "تيقنوا"؟؟ أتزعم لنفسك أنك أفصح من رب العالمين؟؟ أم تراك أعلم بمعاني القرآن من أولئك الذين نزل بلسانهم؟؟ كيف أوهمك شيطانك أننا إذا سمعنا منك هذا الإيراد السخيف، أجازت لنا عقولنا أن نرمي بالمرجعية التراثية في هذه المسألة، وبكلام أئمة اللغة في القرون الفاضلة، بل وبضروريات الاعتقاد التي لا يماري فيها عامي مسلم، ونأخذ منك أنت؟؟

صدق القائل بأبي هو وأمي: إذا لم تستح فاصنع ما شئت!

ثم يأخذ الدكتور في نقد "العلوم الدينية" (هكذا!!)، فيقول:

الواقع الحالي للعلوم الدينية يوضح الواقع الحالي الذي نعيشه حتى الآن أن العلوم الدينية التي نشأت حول النص الديني تجمدت وابتعدت عن مقاصده، وتم تحويل النص الديني من نص "ديناميكي مفتوح" يواكب الحياة المتجددة، إلى نص "استاتيكي جامد" يواكب زمناً مضي وانتهي. فالقرآن الكريم نص مقدس مرن حمّال أوجه في كل العصور، ويواكب المتغيرات المعاصرة

والمتجددة، وهو ما يتضح من خلال نزول القرآن على مدار ثلاثة وعشرين عاما، ومع ذلك نجد الآن أن المفاهيم التي نشأت حول القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة تجمدت وتحولت إلي نص ثابت. ولذا لابد من فتح باب الاجتهاد المتجدد حول المتن المقدس في كل العصور.

ومن ناحية أخرى، نجد أن الإصلاحيين المعاصرين لم يقوموا بالعودة إلى الكتاب في نقائه الأول، بل عادوا إلى المنظومة التفسيرية التي أنتجتها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية لعصور غير عصورنا، وعدوا كل الكتب القديمة هي كتب مقدسة، وهي تمثل المرجعية النهائية في فهم الدين، مع أنها في النهاية هي عمل بشري قابل للصواب والخطأ.

قلت: من جديد يغرقك الدكتور في إجمالات الفلاسفة التي يتذرعون بها لتمرير كل كفر وزندقة! يقول إن العلوم الدينية تجمدت، فحولت "النص الديناميكي المفتوح" إلى نص "استاتيكي جامد"! ولا يخفى أن من يتكلم بمثل هذا الكلام، ينتقد "العلوم الدينية" كلها على هذا النحو، هذا يتكلم من موضع يضع نفسه فيه خارج جميع العلوم الدينية التي بها لا بغيرها يتأهل المسلم للكلام في دين الله جل شأنه! فأي شيء يكون نقد جميع العلوم الدينية في ملة من الملل إن لم يكن نقدا للدين نفسه؟؟ عندما يقال إن علماء الدين كلهم جاهلون بما يجب عليهم أن يكونوا عليه، فهذا حقيقته القول بأن الدين نفسه قد خلا مما يحصل للعلماء به السلامة من ذلك الجهل الذي جاء الفيلسوف أخيرا لينبههم جميعا إليه! وهذا واضح لا يماري فيه إلا مكابر! إن المسلم عندما يقول إن شريعة الإسلام مستوعبة لكل زمان ومكان (ولا نقول "صالحة"!)، بمقتضى كون الإسلام هو الدين الخاتم الذي بعث به رسوله ﷺ للعالمين كافة

إلى قيام الساعة، فإنما يقصد بذلك أن علوم الدين التي علمها الصحابة لأتباعهم، ثم علمها هؤلاء لأتباعهم من بعدهم، وهكذا نزولا بالسند المتصل إلى عصرنا هذا، هذه العلوم نفسها هي ما منه يلتمس ذلك الاستيعاب، في كل عصر وفي كل مكان، لا من غيرها! أما هذا فيريد أن يقنعك أيها المسلم بأن تلك العلوم قد تجمدت وتحجرت كلها، ولم يعد للمشغلين بها أي قيمة معرفية على الإطلاق، ولا إنقاذ لهم ولا نجاة لهم إلا بأن يأخذوا عن فلاسفة العصر علومهم الإنسانية والاجتماعية والسياسية وكذا، لعل "الديناميكية" ترجع إلى نصوصهم من جديد، فتناسب عصرنا كما ناسبت عصر الصحابة من قبل!

وهذا حقيقته الطعن على الدين نفسه ولا شك، وتكذيب قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ الآية [المائدة : ٣] وقوله تعالى في وصف رسوله: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ الآية [الأعراف : ١٥٧] وإبطال الاعتقاد بأن النبي عليه السلام ما ترك خيرا إلا أمرنا به كما أمر سابقينا، وما ترك شرا إلا نهانا عنه كما نهى سابقينا، وبأنه قد علم أصحابه من أمر الدين ما يكفي المسلمين إلى قيام الساعة! فإذا كانت جميع العلوم المتوارثة بين أيدي علماء المسلمين، التي يفترض فيها لا في غيرها أنها قد استمدت من نصوص الدين، وأنها هي ثمرة تلك النصوص عند أصحابها، قد خلت في هذا العصر مما يحصل لهم به من الانتفاع بتلك

النصوص ما حصل نظيره لسابقيهم، لزم أن يكون الدين نفسه باطلا، إذ فيه النص على انتفاع لم يحصل، وعلى كفاية لم تكن! وهو ما لازمه، إلى جانب نقض تلك النصوص نفسها وإبطال ما فيها من مخاطبة البشر كافة إلى قيام الساعة، تكفيرنا جميعا بداية من علمائنا أنفسهم، فتأمل!

ولا جديد في تذرع الدكتور بمقالة "القرآن حمال أوجه" التي يتذرع بها أمثاله في كل مناسبة! كل جاهل خفيف العقل رقيق الدين حملته أهوائه وأمراض قلبه على ابتداع تأويل جديد لآية من كتاب الله، لم يعجز عن أن يقابل من ينكرون عليه بقوله: "أما علمتم أن القرآن حمال أوجه؟ فهذا من تلك الأوجه"! فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله! وإنما الجديد في هذا الكلام هو استدلال صاحبنا لما يريد بحقيقة نزول القرآن منجما على امتداد ثلاث وعشرين عاما! يريد أن يقول ما معناه إذا كان القرآن قد نزل على امتداد تلك السنوات الطويلة، وكان في بعضه ناسخ ومنسوخ، فمن المعيب علينا اليوم أن نحول "مفاهيم القرآن والسنة" إلى "نص ثابت" تتوارثه الأجيال!

ولا نملك هنا إلا أن نسأله: أتزعم نفسك نبيا موصولا بالوحي؟؟ فإن النبي وحده هو الذي يملك أن ينسخ في القرآن ويبدل في مفاهيمه بوحي من رب العالمين! أما وقد تم الدين وانقطع الوحي، فليس أمام المسلمين إلا الاستنباط من النصوص على طريقة الصحابة والتابعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين! وهي تلك الطريقة التي لن يتعلموها إلا من تلك النصوص السلفية الموروثة "الثابتة"، ومن تلك العلوم التراثية التي تواضعت الأمة على استعمالها في ذلك، وإن رغمت أنوف الفلاسفة! هذه هي علوم الدين يا دكتور!

سمها "ستاتيكية" أو "جامدة" أو "متحجرة" أو "متخشبة" أو ما شئت، فستبقى هي معين الهداية وسبيل المؤمنين ولو كرهتم!

فقول الدكتور: " ومن ناحية أخرى، نجد أن الإصلاحيين المعاصرين لم يقوموا بالعودة إلى الكتاب في نقائه الأول، بل عادوا إلى المنظومة التفسيرية التي أنتجتها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية لعصور غير عصورنا، وعدوا كل الكتب القديمة هي كتب مقدسة، وهي تمثل المرجعية النهائية في فهم الدين، مع أنها في النهاية هي عمل بشري قابل للصواب والخطأ."

هذا لا قيمة له ولا تصريف في سوق العلوم الإسلامية البتة! هذا مما يهذي به الفلاسفة في مجالسهم يضحكون به على السذج من أتباعهم، أما أن يؤتى به إلى ملأ من علماء المسلمين ثم يقال لهم هذا ما عليكم أن تقبلوه وتعملوا به إن أردتم "تطوير العقل الديني"، فهذا افتيات على الشرع وعلومه لا يجوز السكوت عليه!

تقدم أن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكذا، لم تكن هي التي "أنتجت" علوم المسلمين، وإنما أنتجتها قلوب أناس تشربوا بميراث النبوة وتعليم النبي عليه السلام وأصحابه من بعده، وإنما اختلفت اجتهاداتهم واستنباطاتهم الشرعية المتعلقة بتلك الظروف، الدائرة مع أسبابها وجودا وعدما، عن اجتهادات من جاء بعدهم ممن تغيرت تلك الظروف في عصرهم! وإلا، فإذا كان الأولون قد احتاجوا إلى علوم اللغة لتوثيق لسان العرب الذي نزل به القرآن على قرب عهدهم به، فنحن اليوم أشد حاجة منهم إليها ولا شك، وإلى أن نأخذها عنهم كما هي، كما من الله عليهم بتأسيسها في

عصرهم وبتلقي الأمة لها بالقبول، ولم يزل الأكابر العدول في الأمة من بعدهم يورثونها لتلامذتهم كابرا عن كابر!

وكذلك يقال في علم الرجال وعلوم الحديث! فإذا كان أهل القرن الثاني والثالث الهجري – مثلا – قد احتاجوا إلى من يعرفهم بالرواة الثقات الأثبات الضابطين الذين تقبل روايتهم في الدين، وضوابط القبول والرد والترجيح في ذلك، حتى لا يأخذوا الدين عن الكذبة والمنافقين، فنحن اليوم، على بعد المسافة التاريخية الفاصلة بيننا وبينهم، أشد حاجة منهم إلى تلقي تلك العلوم عنهم واقتفاء أثرهم فيها، واستعمال ما منّ الله عليهم به من أدواتها التي تلقتها الأمة بالقبول من قبل ولم يزل أكابر العلماء والأئمة يتوارثونها جيلا بعد جيل! وكذلك يقال في أصول الفقه والاستنباط من النصوص والآثار، تلك الطريقة التي ألهم الله بها علماء الصحابة من قبل، ثم اشتغل بتحريرها وبيانها ثلة من أوليائه الصالحين من بعدهم (بصرف النظر عما أدخله الدخلاء عليها من دخن فلسفي لولا ابتلاء المسلمين بالفلسفة والكلام ما وقع في مطولاتها)، ثم امتن على الأمة كلها بأن صارت تلك الصنعة هي سبيل المؤمنين في استنباط الأحكام الشرعية على النوازل كلها إلى يوم الدين، يتعلمها كل من أراد أن يبلغ منزلة الاجتهاد في الفتيا والقضاء! وعلى هذا قس جميع علوم الدين، سواء ما كان منها من علوم الآلة أو من علوم الغاية!

فهل هذا كله عمل بشري؟ قطعا هو عمل بشري، لم توح به الملائكة إلى العلماء كوحي الأنبياء ولا نزل في قراطيس من السماء، فكان ماذا؟؟ هو العمل البشري الذي حفظ الله به الدين، ولولا أن امتن به علينا ما كنا اليوم مسلمين!

نعم لا تخلو كتب التراث (بهذا الإطلاق التاريخي المجرد) من كلام فاسد وبدع ومخالفات، فالأمة مبتلاة بالفرق النارية منذ القرن الأول! فكل ما ورثه المسلمون فهو "تراث" في اللغة! ولكن نحن عندما نقول إننا ندعو إلى الحفاظ على "تراثنا العلمي الشرعي" وإحياء علوم الدين، فلا ندعو بطبيعة الحال إلى إحياء بدع الخلف من السابقين، وإنما ندعو إلى التماس الأمر الأول الذي كان عليه أئمة السلف الصالح، الذي من الله تعالى علينا بحفظه في تراث المسلمين! أما هذا فيدعو لنبذ الجميع بدعوى أنه كله "نتاج" الظروف، وقد تغيرت الظروف، إذن لزم ترك الكتب القديمة كلها لأنها "ليست مقدسة"! وكأن علماء الملة كلهم ينتظرون سيادته وأمثاله ليعلموهم أخيرا كيف يفرقون بين الكتاب "المقدس" و"غير المقدس"!

ثم من هم الإصلاحيون المعاصرون هؤلاء؟؟

اعلم يا دكتور أن من زعم أن المسلمين لم يرثوا فيما ورثوا آلة محكمة منضبطة في التفريق بين السنة والبدعة، وبين العقيدة الصحيحة والفاسدة، فقد ضيع سبيل المؤمنين وكذّب صريح القرآن وألحقنا بأهل الكتاب الذين انقسموا إلى بضع وسبعين فرقة كلها في النار!

يقول:

وإذا استعرضنا ما تم خلال المائتي عام الماضية، سنجد من ناحية، أن معظم علمائنا استعادوا كل المعارك القديمة، معارك زمن الفتنة الكبرى التي نشأت أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونحن لانزال نعيش في زمن الفتنة وعصرها، عصر الصراع، والانشقاق، والتكفير، والتفجير، ومعارك الهوية،

ومعارك فقه الحيض والجنس والجسد، ومعارك التمييز بين الجنسين. وفي المقابل نجد أنهم لم يدخلوا بعد المعارك الجديدة والمعاصرة، معارك التنمية، ومعارك إنتاج العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والإنسانية، ومعارك الفساد، ومعارك الحرية، ومعارك الفقر والجهل والأمية، ومعارك الدفاع عن الدولة الوطنية.

قلت: أي معارك قديمة هذه التي "استعادها" معظم علمائنا، وكأنها ماتت واندفنت ثم جاؤوا هم بإحيائها وبعثها من جديد؟؟ هذا الكلام يضيف إلى الجهل بأبجديات العلم الشرعي جهلا بالتاريخ كذلك! أما علمت يا دكتور أن فتنة عثمان هذه قد نشأ عليها دين كامل في بلاد فارس، يقال له المذهب الشيعي؟؟ هل تعلم سبب عدائهم للمسلمين (أهل السنة) أم لا تعلم؟ إن كنت تجهل فتلك مصيبة، وإن كنت تعلم فالمصيبة أعظم! الصراع لم يمت يا دكتور ولم يندرس، بل تأسست عليه دول وسياسات وعلاقات ومعارك فكرية وسياسية لم تزل الأمة تعانيها عبر تاريخها إلى أن يشاء الله! فمن تعرض لذلك الصراع، وجب عليه أن يعلم الموقف الحق فيه وإلا هلك على زيغ وضلال مبين! يا دكتور، إما أن تؤمن بأن صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا عدولا أطهارا، ومن ثم تأخذ منهم دينك كما أخذت عنهم نص القرآن (الذي ما ثبت تواتر النقل به عندنا إلا من طرقهم)، وإما أن تسقط الثقة بهم كما أسقطها الروافض، وإذن فخذ الدين عمن شئت، فليس هو ديننا ولا ما به نرجو النجاة يوم القيامة! فإذا كان هذا هو موضوع الصراع، فوالله لا ثقة في عالم يهون منه أو يتساهل فيه! والأمر كما قال السلف: إنما هذا العلم دين، فلينظر أحدكم عمن يأخذ دينه!

فقوله إن العلماء ما زالوا يعيشون "عصر الصراع، والانشقاق، والتكفير، والتفجير، ومعارك الهوية، ومعارك فقه الحيض والجنس والجسد، ومعارك التمييز بين الجنسين." فبأي عقل أو دراية بتاريخ الأمم يقال إن هذه المذكورات كلها أمور قد مضى عصرها وولى ولم يعد بالمسلمين حاجة لأن يشتغل بها علماؤهم؟؟ هل انتهى الصراع في الأرض بين أهل الحق وأهل الباطل؟؟ هل انتهت أسباب الشقاق والفرقة بين المسلمين بالباطل والعصبيات الفاسدة؟؟ هل انتهت حاجة النساء إلى من يعلمهن فقه الحيض والجنس والجسد؟؟ هل انتهت أسباب تفريق الدين بين الرجال والنساء فيما اختص به كل نوع منهما من أحكام شرعية؟؟ ما هذا الهراء؟؟ وما ظن صاحبه بعقول من ألقاه بين أيديهم؟؟ يقول إنهم إلى الآن لم يدخلوا "معارك التنمية، ومعارك إنتاج العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والإنسانية، ومعارك الفساد، ومعارك الحرية، ومعارك الفقر والجهل والأمية، ومعارك الدفاع عن الدولة الوطنية"، فمن الذي أوهمه بهذا؟؟ ومن هم علماء الشريعة في ميزانه أصلا، حتى يحكم عليهم بأنهم لم يتعرضوا لتلك المسائل أبدا؟؟ أولا إنتاج العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والإنسانية هذا كلام مجمل للغاية، فكل علم له المختصون به، وليس من شرط العالم الشرعي أن يكون منهم حتى يكون منتجا لشيء مما ينتجون! ثانيا معارك الفساد هذه من اختصاص ولاة الأمر لا من اختصاص العلماء، فإن رجعوا إلى أهل العلم أفتوهم بتنزيل القواعد الشرعية على هذه النازلة وتلك، ولا يزال أهل العلم يقومون بذلك بفضل الله تعالى ولا إشكال! ثالثا ما المقصود بمعارك الحرية هذه؟؟ حرية من ومن أي شيء؟؟ كلام فارغ وذر للرماد في العيون لا أكثر! وأما قوله "معارك الفقر

والجهل والأمية" فمن جديد، تكليف لعلماء الملة بما ليس من اختصاصهم! فالفقر ليس معركة أصلا، حتى يقال إن من واجب هذه الفئة أو تلك أن تخوض فيها! وإنما هو ابتلاء لفئات من المسلمين، قد جاء في الشرع من الأحكام، كزكاة المال والكفارات والصدقات ونحو ذلك، ما يرجى معه تخفيفه. وأما الجهل والأمية فمجمل أيضا، إذ إن كان المقصود به الجهل بالعلوم الدنيوية فليس تعليم تلك العلوم من اختصاصهم ولا مما يطلب منهم! وإن كان المقصود الجهل بالعلوم الدينية فلا تزال الدروس والمحاضرات للعلماء من أهل السنة في المساجد وفي بعض الجامعات النظامية، تعلم المسلمين ما يجب على التعيين وما يجب على الكفاية من علوم الدين، في جميع بلاد المسلمين، ولله الحمد والمنة! نسأل الله ألا يرحمنا من علوم علمائنا وأن يبارك في أعمارهم! وأما معارك الدفاع عن "الدولة الوطنية" فمجمل أيضا! فإن كان المقصود الدفاع عنها ضد مثيري الفتن من الخوارج ومن شاكلهم، فلا يزال علماء الأمة قائمين بذلك ما شاء الله! وإن كان المقصود الدفاع عنها ماديا وعسكريا فليس هو من اختصاصهم كما هو واضح!

فبالله ما الذي نخرج به من ذلك الكلام إلا أن يكون طبلا أجوف، وافتعالا "لخيال مآتة" يظن الدكتور أنه إن تمكن من إحراقه بين أيدي الحضور، فسيحصل له مطلوبه من دفن العلوم الشرعية كلها جملة واحدة؟؟

نعوذ بالله من كبر يعمي البصائر ويقتل القلوب!

ثم يرجع الدكتور ليكرر كلامه بأن القرآن "إلهي"، بينما علم التفسير "بشري"، وأن متون السنة "مقدسة" بينما كتب الشراح "بشرية" .. إلخ،

وكأنما يخاطب جمعا من الحمقى أو المغفلين مثلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولأنه يدرك سخافة الخطاب وأنه تحصيل لحاصل، استدرك قائلا: "وهذه مسلمة واضحة وليست اكتشافا، لكن المتعصبين الذين تجمد عقلهم، وتجمد معه كل شيء، رفضوا الاجتهاد، وتمترسوا خلف التقليد. وهم لا يعرفون، ولا يريدون أن يعرفوا، أن من المنطق الفاسد والخلط الزعم بأن أية علوم شرعية بشرية هي مبادئ وقواعد يقينية مطلقة تصلح لكل زمان ومكان. فالبشر ذوو عقول نسبية متغيرة، والحقيقة تتكشف تدريجيا، ولا تأتي دفعة واحدة إلا من خلال "وحي" ، بل إن الوحي نفسه جاء منجما عبر ثلاث وعشرين سنة، وترك مساحة للجهد البشري في اكتشاف الحقائق والوقائع في الكون، بل أيضا في استنباط الأحكام الشرعية (لعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) (النساء: ٨٣)." اهـ.

قلت: من هم المتعصبون الجامدون هؤلاء؟؟ هلا سميتهم لنا وعينتهم وبينت في دراسة أصولية وفقهية منضبطة وجه حكمك عليهم بأنهم "تجمدت عقولهم" و"رفضوا الاجتهاد" و"تترسوا بالتقليد"؟؟ كلام مرسل لا طائل تحته، يعلم صاحبه أنه مهوِّل مرجف، صاحب وهم لا حقيقة له! ليس في علماء الملة من يدخل عليه ذلك الإجمال السخيف الذي سطره الدكتور في قوله: "من المنطق الفاسد والخلط الزعم بأن أية علوم شرعية بشرية هي مبادئ وقواعد يقينية مطلقة تصلح لكل زمان ومكان." العلوم الشرعية هنا ما المقصود بها تحديدا؟ هل المقصود أصول الصنعة وقواعدها التي أطبقت عليها الأمة ولا يزال العلماء يعلمونها طلبتهم ويعلمونهم كيف استعملها الصحابة والتابعون وأئمة القرون الفاضلة في استنباط الأحكام الشرعية منها؟ أم المقصود بعض

آحاد المسائل التي ينبغي أن تتغير مذاهب العلماء فيها لتغير الزمان والمكان، جريا على قواعد أهل العلم في ذلك، أم المقصود هذا وذاك جميعا؟؟ تهاويل فارغة لا وزن لها ولا تحقيق عند علماء الملة، وإنما تروج عند العوام من أتباع الفلاسفة! قوله "فالبشر ذوو عقول نسبية متغيرة، والحقيقة تتكشف تدريجيا، ولا تأتي دفعة واحدة إلا من خلال "وحي"" هذا لا تأثير له على حجية الإجماع عند المسلمين، كما يرجوه الدكتور!

ثم إن الحقائق الشرعية إن كان المراد بها بناء العلوم الشرعية نفسها التي درج المسلمون على استعمالها في القرون الفاضلة وما بعدها، فهذه لا يقال فيها إنها تتكشف تدريجيا، وإنما الذي تكشف تدريجيا فيما مضى وتم أمره، إن سلمنا بصحة استعمال ذلك التركيب في هذه البابة، هو تقرير وتحرير وتأصيل العلماء والأئمة الأوائل لما وجدوا عليه سلفهم في التعامل مع نصوص الوحيين وفي طرق الأخذ منها! وهذا عمل قد تم وانقضى ولله الحمد والمنة، ولا متسع فيه للتجديد لانصرام موضوعه وانقضاء عهده! إيتنا اليوم بصحابة رسول الله ﷺ وأجلسنا بين أيديهم ثم علمنا لسانهم ومكنا من إتقانه تمام الإتقان، إن أردت منا أن نعيد النظر فيما بناه أئمتنا الأولون رحمهم الله من تحرير وتقرير لقواعد سلفهم في شتى العلوم!

فالبابة كما هو واضح لا يقال فيها إن "الحقائق لم تزل تتكشف تدريجيا"! وإنما الذي لم يزل يتكشف، هو النظاميات الحاكمة للطبائع المادية وللعلاقات الإنسانية ونحو ذلك مما كان للدكتور حظ من مطالعته والتشبع بطريقة أصحابه! وكذلك المعرفة التاريخية ببعض مجالات البحث التاريخي التي تتوقف على استكشاف الوثائق والآثار وكذا. ففي التجريبيات تبدأ المباحث

النافعة التي ترجى فيها الزيادة والتطور في تلك العلوم، بفروض سببية يراد إثباتها، ثم تلتمس الإثباتات في التجارب والمشاهدات والمسوحات بأنواعها، فيزداد العلم بالاستقراء بعد الاستقراء، كل واحد منها بحسبه! أما أصول العلوم الشرعية فلا علاقة لها بذلك المنهج أصلا! فتأمل أيها القارئ المحترم، واحكم بنفسك من المخلط صاحب المنطق الفاسد على التحقيق!

ثم ما معنى قوله "إن البشر ذوو عقول نسبية متغيرة"؟؟ والله لا نقره عليه حتى يفصح ويفصل!! وأما قوله "بل إن الوحي نفسه جاء منجما عبر ثلاث وعشرين سنة، وترك مساحة للجهد البشري في اكتشاف الحقائق والوقائع في الكون"، فمن الذي قال إن تنجيم القرآن كان من أجل "ترك مساحة للجهد البشري .. إلخ" ومن أين جئت بهذا؟؟ الدعاوى إن لم تقم عليها بينات فأصحابها أدعياء! إن كنت تزعم أن هذا ما فعله الصحابة، فعليك الإثبات، وعلى شرطك المعرفي في تلك القضايا الكبيرة، نطالبك بالنص المتواتر ولا نرضى منك بالآحاد، ودونك إلى ذلك ما بقي من عمرك! الصحابة كانوا أميين ولم يكونوا فلاسفة يبحثون في حقائق الكون، بل كان عامتهم لا يقرؤون ولا يكتبون، كما كان رسولهم ﷺ. فأيما اجتهاد وقع لهم، فإنما كان تأسيسا على ما انتهى إلى علمهم من قول الرسول وفعله وتقريره، وجريا على ما تعلموه منه عليه السلام! فالزعم بأن تنجيم القرآن كان الغرض منه ما ذكرت، هذا لا محل له في تاريخ الرسالة ولا قائل به قبلك!

ثم يقول:

"وعلى ذلك، فكل ما جاء فى التاريخ بعد لحظة اكتمال الدين التي أعلنها القرآن، جهد بشرى قابل للمراجعة، وهو في بعض الأحيان اجتهاد علمي في معرفة الحقيقة، وفى أحيان أخرى آراء سياسية تلون النصوص بأغراضها المصلحية المنحازة. وفى كل الأحوال – سواء كانت موضوعية أم مغرضة - ليست هذه الآراء وحياً مقدساً، بل هي آراء بشرية قابلة للنقد العلمي والتمحيص." اهـ.

قلت: أولا، أهل العلم يفرقون بين قول الكافة من السلف إن لم يظهر فيهم خلافه، وقول الواحد الذي خالفه غيره. وحتى قول الواحد من الصحابة واجتهاده (الذي هو رأي بشري!) يكون حجة عند جماهير أهل العلم من المذاهب الأربعة، إن لم يعرف في الصحابة قائل بخلافه، ولم يخالف نصا صريحا من القرآن أو من كلام النبي عليه السلام! لماذا؟ ومن أين جاءت تلك القاعدة عند أئمة الدين؟ جاءت من كون الأصل الكلي الذي عليه يقوم مبدأ التفقه وتلقي المعرفة في العلوم الشرعية، هو التماس الطرق لمعرفة ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه معه. فبناء على هذا الأصل الكلي، نشأت المذاهب الفقهية كلها، وجرى ترتيب أنواع الأدلة الشرعية في قوة الدلالة وإفادة المعرفة عند الاضطرار للترجيح. الأصل أننا نريد أن نعرف ماذا قال الرسول عليه السلام، فإن لم نجد بحثنا عما ثبت عنه من الفعل أو التقرير، فإن لم نجد بحثنا عما ثبت عن أصحابه عليه السلام مما له حكم الرفع في نفس الأمر، أي مما لا يقال مثله بالرأي، فإن لم نجد بحثنا عما كان جرى عليه عملهم دون مخالف منهم، فإن لم نجد بحثنا عن فتاوى آحادهم التي لم

ينقل عنهم خلافها! فإن لم نجد، فحينئذ، وحينئذ فقط، نضطر إلى إعمال القياس والبحث في الأشباه والنظائر!

فلا شك أن اجتهاد الصحابي (أو رأيه البشري إن شئت) مقدم على اجتهاد الواحد منا إن لم نجد في المسألة سواه! ولا التفات إذن لمجرد حقيقة أنهم اجتهدوا تلك الأقوال في زمان غير زماننا وظروف غير ظروفنا .. إلخ! فما دامت صورة المسألة واحدة، فاجتهادهم مقدم على اجتهادنا ولا شك، لمكانهم من رسول الله ﷺ! فصحيح إنهم بشر أمثالنا، إلا أنهم أوفر الناس حظا من العلم بالرسول عليه السلام، وأقربهم به عهدا، وأحظاهم بتزكيته لقلوبهم وأفهامهم على طبقات لهم في ذلك كما هو مقرر في كتب التراجم والسير، وأنت إن لم تتمكن من السماع من العالم أو الإمام كفاحا، طلبا لما عنده من العلم، سألت عنه أعلم الناس به من رفاقه وأصحابه وجلسائه، فإن لم تصل إلى هؤلاء، التمست السماع من تلامذتهم، وهذه مسألة لا يراها من بدهيات العلم ومهماته إلا من سلمت نفسه من كبر الفلاسفة واستعلائهم على سلف الأمة، نسأل الله السلامة!

كان السلف يقول الواحد منهم: لو استطعت ألا أحك رأسي إلا بأثر لفعلت! فهل كان هذا من خفة عقولهم مثلا، أو من حرصهم على التقليد وكراهيتهم للعقل والاجتهاد؟؟ أبدا وحاشاهم، بل كانوا أكمل الناس عقلا وأوفرهم علما وأقلهم تكلفا! ولن تحقق الفهم بوجه كمال العقل الذي ننسبه إليهم يا دكتور حتى تتحرر من المفهوم اليوناني الخبيث للعقل وكماله، الذي لم ينشأ إلا عن قلوب مريضة مستكبرة، بالغة في الكبر غايته، أقام أصحابها أنفسهم في مجالس الأنبياء والمرسلين، وعلموا أتباعهم طريقة ذلك، فيما لم يزل

الأكاديميون الغربيون الذين تشبعت بكتبهم ومناهجهم يتوارثونه خلفا عن سلف! وإلا فمن كان سالم النفس من الكبر والهوى، ومن الحرص على الظهور بعقله ورأيه وحمل الناس على اتباعه دون غيره، كان – والله – أحب شيء إليه أن يقف في المسألة على نص أو أثر سلفي يتعلق به! فإنها تكون له كطوق النجاة وصمام الأمان، إذ تصله بخير القرون الذين أثنى عليهم رب العالمين في القرآن وأثنى عليهم رسوله، ويكون القول بها عنده أرجى للدخول في سبيل المؤمنين والسلامة في الدين، من رأيه هو واجتهاده هو وقياسه المستقل! ولهذا تجد في بعض أبواب الفقه من المسائل ما لا مستند فيه عند الفقهاء إلا الحديث الضعيف، الذي تلقته الأمة، على ضعف إسناده، بالقبول، وجرى عليه العمل وإن كان موقوفا على الصحابي! لماذا؟ لأن مجرد جريان العمل بالأثر وإن كان مرسلا أو موقوفا، يدل على أن له أصلا عند الصحابة يرجعون فيه إلى تعليم رسول الله ﷺ، وإن لم نقف بأنفسنا على ذلك الأصل! هذا هو منطق علماء الإسلام ومصادر تلقي المعرفة الدينية لديهم، منطق أناس مؤمنين يريدون الخضوع والانقياد للرسول، صدقا وتجردا، ويلتمسون أثره أينما كان، غير ملتفتين إلى حظوظ أنفسهم، فإن لم يجدوا أثره، التمسوا آثار أصحابه وحوارييه من بعده، خلافا لمنطق الفلاسفة المستكبرين الذين لا يريدون النصوص إلا طلاسم ورسوم ليخترعوا هم لها ما يحلو لهم من التأويلات والتفاسير، حتى يكونوا هم المتبوعين لا التابعين، وهم القادة لا المقودين، فتأملوا يا أولي الألباب!

أما سمعتم قول ربكم، الذي هو أعلم بقلوب عباده: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦]

هذه هي البنية العقلية التي تقف وراء "الخطاب الديني التقليدي" يا دكتور، التي طالبت "بتفكيكها"، فأتنا "بعقلية" خير منها وأهدى، وأحسن دلالة للناس على سبيل المؤمنين، إن كنت من الصادقين!

يمضي الدكتور بعد ذلك في تقرير أن الخطاب القديم كما يسميه، لا يمكن أن يأتي "إصلاحه" بتأسيس العقل الجديد والخطاب الجديد الذي يدعو هو إليه وأمثاله، لأنه "ببساطة" (على عبارته) يعيش داخل ذلك الخطاب، والمطلوب هو هدم البيت كله من جذوره، فكيف يهدمه على نفسه من لا يزال ساكنا فيه؟؟ بل دعونا نحن الفلاسفة، يا علماء الإسلام، نتكفل لكم بذلك، ونهدم البيت فوق رؤوسكم جميعا! فمن نجا منكم فلينفض الركام عن نفسه وينضم إلينا إن شاء! فبالله هل هذا كلام يقوله مسلم يدري ما الدين أو يعرف لعلوم الدين قدرها أو يقيم للشريعة وزنها؟؟ سلم يا رب سلم!

يقول الدكتور: "والرأي عندي أنه لابد أن يأتي التجديد من دائرة معرفية خارجية أو قادرة على التخارج، وهذا ما وجدناه في كل الأنبياء العظام والفلاسفة المبدعين، فإذا راجعت سير الرسل الكبار تجد أنهم حملوا رسائل من خارج الدائرة المعرفية لأقوامهم، وأنهم قبل الرسالة كانت لهم احتكاكات بدوائر معرفية خارجية؛ فالوحي لا يأتي عبثا."

قلت: صدق ابن دقيق العيد رحمه الله عندما قال:

يقولون هذا عندنا غير جائز *** ومن أنتمُ حتى يكون لكم عند

تأمل كيف يقرن الرجل بين الأنبياء العظام والفلاسفة المبدعين، في معنى "الخروج" على "الدائرة المعرفية لأقوامهم"، واستحضر حقيقة أنه يريد منا معاشر المسلمين أن نقوم بمثل ذلك في علوم الدين! وأنا لا أدري كيف لم يستح الدكتور وهو يكتب هذا الكلام! هل يرى نفسه رسولا كبيرا قد جاءنا أخيرا بما حقه أن نترك جميع علوم الدين التي عندنا لنأخذه عنه في محلها؟؟ أبدا! بل يرى نفسه فيلسوفا عظيما، ولا فرق! فليكن القائم بتجديد الدين على هذا النحو التدميري التفجيري الذي يدعو إليه، رسولا أو فيلسوفا، لا فرق! فالرسالة والنبوة على أي حال إنما هي منزلة من منازل الفلاسفة عند من تشبع بآرائهم! ألا تراه يقول إن الرسل قبل الرسالة كانت لهم احتكاكات بدوائر معرفية خارجية، والوحي لا يأتي عبثا، ويقول في هذا المعنى في خطبته على المنصة إن الرسالة والحي له أسبابه التي يؤخذ بها؟؟

فأي دوائر معرفية خارجية هذه يا عدو نفسك التي "احتك بها" الرسل الكبار قبل الوحي، وقد صرح رب العزة جل شأنه بنفي تلك الشبهة عن محمد ﷺ في غير موضع كما في قوله: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان : ١٤]

وقوله ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : ٥] وقوله ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣]، وغير ذلك مما في معناه؟؟ هل قرأت القرآن يوما من الدهر يا دكتور؟ أتعلم أن هذه الفرية إنما يفتريها المستشرقون والفلاسفة حتى ينسبوا الأنبياء والرسل إلى الفلسفة، ويقطعوا الصلة بينهم وبين وحي السماء بالكلية، فلا ينظر الناس إليهم بعد إلا على أنهم كانوا فلاسفة عظاما استطاعوا بذكائهم ونبوغهم أن يجمعوا الناس على ما زعموه وحيا من رب العالمين؟؟

سبحانك ربي هذا بهتان عظيم!

وفي كلمته على المنصة يقول الدكتور عند هذا الموضع إن الأنبياء كلهم تعرضوا لثقافات أخرى قبل البعثة، ويذكر أن موسى عليه السلام خرج من مصر وعاش في مدين لسنوات ثم بعث رسولا ورجع إلى مصر! ولا شك أن هذا حق، وله حكمه عند الله عز وجل، ولكنه يريد من هذا الكلام أن يقرر باطلا مفاده أن موسى عليه السلام ما كان ليتأهل (معرفيا) للرسالة لولا أن عرضه الله تعالى لثقافة أخرى غير التي نشأ فيها! ولهذا قال معقبا: "الوحي لا يأتي عبثا، ولكن الوحي يأتي لمن يأخذ بأسباب الوحي"!! وكأن الله تعالى أرسل إلينا فلاسفة مدربين على الدياليكتيكا والهرمنوطيقا والفينومينولوجي والسوسيولوجي وغير ذلك من "تيكات" و"اللوجيات" التي يريد هو أن يبدل بها ديننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولا يخفى أن قوله "من يأخذ بأسباب الوحي" يقتضي أن من أراد أن يُصطفى للوحي والرسالة، فعليه أن يتفلسف، وهذا كفر محض، نسأل الله العافية!!

ولا أجد والله إلا أن أضحك ملء فمي من قوله على المنصة "الموطأ أصح كتاب بعد كتاب الله"! دع عنك صحيح البخاري الذي أجمعت الأمة على إنزاله تلك المنزلة، فالرجل لا يقيم وزنا لإجماعات المسملين على أي حال، ولكن دعنا نسأله: هلا بينت لنا تكرما، كيف وبأي حجة انفصلت أنت إلى القول بجعل موطأ مالك الكتاب الأصح بعد القرآن، لمجرد أنه "الأقرب سندا إلى الرسول ﷺ"؟؟ ما الدليل على كون الكتاب الأعلى سندا هو الأصح سندا بالضرورة؟؟ هذا على أساس أن مجرد علو السند دليل على صحته؟ طيب من أين جئت بهذه "القاعدة" الخفية عندك؟ يعني إن أردنا أن "نجدد" علم الحديث والمصطلح، كما هو شرطك في التجديد، فمن أين نأخذ تلك القاعدة وغيرها؟ وما الدليل عليها، أي دليل، حتى ولو على طريقة الفلاسفة الذين تنتمي إليهم؟؟ الله المستعان!

على أي حال ينتقل الدكتور في الورقة بعد ذلك إلى بلية أخرى من بلاياه، فيتباكى على ما سماه "بجمود اللغة"، وافتقارها هي نفسها إلى التطوير! وهنا يبث في القراء سموم ما تشبع به من فلسفة ما بعد الحداثة والفلسفة القارية الأوروبية المعاصرة، التي نجم نجمها في النصف الأول من القرن الميلادي الماضي على أيدي سوفسطائيين كبار أمثال هايدغر وهاسرل ودريدا وجان بودريلار وجان فرانسوا ليوتار وغيرهم، تلك الطريقة الهزلية التي لا يزال الفلاسفة الغربيون أنفسهم في أوروبا وأمريكا يتخذونها هزوا ويسفهون أصحابها، وحق لهم أن يفعلوا! إذ أي عقل يبقى لمن يخرج على الناس يقول لهم: إن لغتكم التي تتكلمون بها، ليست معاني ألفاظها عندكم ملزمة لنا حتى

نسلم لكم بها، والواجب عليكم أن تفككوها تفكيكيا إن أردتم الترقي بعقولكم إلى أعلى ما يرام؟؟!

يأخذ الدكتور في الشكوى من حقيقة أن المؤسسات الدينية القائمة لا يمكن أن تقوم بالتجديد المنشود لأنها، ويا للأسف، حبيسة في اللغة القديمة التي هي لغة التنزيل، ولا تريد أن تجددها هي نفسها! وأنت إذا أردت أن تغير طريقة تفكير الإنسان، فحسبك أن تبدأ بتغيير لغته وتفكيكها بين يديه! فوالله لكأنما أقرأ لشيطان ذي قرنين، يعلم الشياطين درسا في نقض الدين من أصوله وهدمه على أصحابه غاية ما يكون الهدم!

يا هؤلاء، حقيقة "الخطاب" الذي نزل على الرسول عليه السلام أنه كلام تكلم به رب العالمين بلغة الرسول ولغة قومه، وكلام تكلم به الرسول من لفظه هو في بيان معان أوحي بها إليه. فمن أراد أن يتلقى العلم بالمراد من ذلك الخطاب الإلهي على ما هو عليه في الواقع، لا على ما يحب هو أن يجعله عليه بهواه، فليس أمامه إلا أن يكسر كبر نفسه ويثني ركبتيه ويتعلم لسان التنزيل كما حفظه أهله والعلماء به، ويصبر على ذلك، وأن يطلب فهم المخاطبين الأوائل به، لأنهم أدرى الناس به وأوفر الناس حظا بالسماع من الرسول عليه السلام مباشرة بلا واسطة! أما أن يقول إن اللغة نفسها التي يتعلمها علماء الشريعة لابد من الانفكاك منها حتى "تتطور عقولهم"، فهذا والله غاية السفه والكبر! وهو أشبه ما يكون بأن يأتيك رجل يكلمك بلغة ما، فتقول له: لن أتعلم لغتك حتى أتأول كلامك ولا يلزمني ذلك، فإن لغتك هذه لا محل لها في ثقافتي ولا في ظروفي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية و... إلخ!! فأنى يحصل الفهم لمثل هذا وكيف له الزعم بأن ما ينتهي إليه من

تأويل، أيا ما كان، هو مراد صاحب الكلام؟؟ هؤلاء قوم لم يكفهم بغض علوم الشريعة والحط عليها، بل حتى اللغة التي نزل بها القرآن لا يريدون سماعها ويأنفون منها أعظم ما تكون الأنفة! فأي قرآن هذا الذي يزعمون أن بضاعتهم ستقدم للمسلمين العلم الصحيح به وبما فيه؟؟ ليس هو قرآننا هذا الذي نجده في مصاحفنا قطعا، وإلى الله المشتكى!

ولا يفوت الدكتور أن يذر شيئا من الرماد في عيون القراء والحضور، فيقول إنه لا يدعو لنبذ التراث كله، فإن فيه الإيجابي كما أن فيه السلبي! يقول: "ولذا فإننا لا ندعو إلى القطيعة الابستمولوجية التامة مع اللغة العربية بخاصة أو التراث بعامة، ولا مع جهود السابقين، بل ندعو إلى علاقة ابستمولوجية جدلية، تقوم على الديالكتيك بين التراث والواقع المعاصر والمنهجيات المعاصرة." اهـ. قلت: الله أكبر! أثلجت صدورنا يا دكتور! لا ندعو إلى رمي اللغة العربية كلها في الزبالة، وإنما ندعو إلى العلاقة الجدلية معها! يعني يأتينا من يقول إن لفظة كذا في القرآن تعني كذا، لأن هذا هو معناها عند من نزل القرآن بلسانهم، فنقول له: هذا لا يلزمنا، بل علينا أن نجادل اللغة العربية نفسها بما يفرضه عليها "الواقع المعاصر" و"المنهجيات المعاصرة"! نعرض اللفظة على فلسفة هيغل أو هايدغر أو هاسرل، ثم ننظر أي المعاني لتلك اللفظة يكون هو الأليق بتلك الفلسفة والأنسب لها، بعد إتمام دراسة الجدلية أو الديالكتيك اللغوية على طريقة هؤلاء! فبالله هل هذه طريقة من يؤمنون بأن لرب العالمين مرادا معينا من كلامه العربي، لا يعرفه من لا علم له باللسان العربي؟؟ هل هذه طريقة من صدق قول الباري جل شأنه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن

رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم ﴾ [إبراهيم : ٤] وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [مريم : ٩٧] أي لم نيسره إلا بلسانك يا محمد، وقوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٥] وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : ٥٨]؟

حسبنا الله ونعم الوكيل!

ثم يدعو الدكتور إلى إجراء الدراسات البينية في علوم الدين، يقول:

الدراسات البينية وعدم النظر إلى علوم الدين كجزر منعزلة لن يتحقق الخطاب الديني الجديد بالصورة المأمولة إلا من خلال الدراسات البينية التي يساهم فيها أكثر من اتجاه علمي، في إطار العلوم الاجتماعية والإنسانية. فالدراسات البينية هي التي تحقق الفهم المتكامل والشامل للظواهر التي تتم دراستها.

قلت: أولا من هذا الذي ينظر إلى علوم الدين كأنها جزر منعزلة؟؟ الجاهل بها هو الذي يراها كذلك! وأما العلماء فلا يبلغ أحدهم أن يعد من العلماء حتى يصيب بسهم وافر من جميع علوم الدين، ويلم بأصولها وطرق البحث فيها! هذا يعرفه علماؤنا من قبل أن يظهر مفهوم الدراسات البينية Interdisciplinary Studies في الأكاديميات الغربية (كمحاولة لتعديل المسار بعدما أغرق القوم في التنطع الأكاديمي والتعمق الفارغ!) ببضع

عشرة قرنا من الزمان! ولكنه في الحقيقة لا يقصد بانعزال العلوم الدينية انعزالها عن بعضها البعض، وإنما ينقم عليها أن أصحابها لا يتخذون من نظريات العلوم الإنسانية وأدوات أصحابها مصدرا من مصادر التلقي المعرفي تستنبط منه الأحكام الشرعية كما تستنبط من الكتاب والسنة! فهو يريد منا أن نجعل مصادر التلقي في ديننا هي الكتاب والسنة ونظريات الاجتماعيين والقانونيين الغربيين والقياس الجاري على طرائق أصحابها، وليس "الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح" كما عليه علماء الملة!

وهنا يضرب المثل، أخيرا، فيقول:

وعلى سبيل المثال من الضروري توظيف النظريات القانونية الحديثة في تطوير أحكام الفقه، مثل توثيق الطلاق على غرار توثيق الزواج طبقًا لنظرية الأشكال القانونية المتوازية، لأن انعقاد وإثبات الطلاق عن طريق توثيقه منطقي في ضوء نظرية الأشكال القانونية المتوازية، فما يتم وفق شكل وإجراء لابد أن يتم انهاؤه بالشكل والإجراء نفسه. و هذا الرأي نقدمه في مقابل باقي الآراء، لكن الأمر في نهايته يحتاج إلى حوار مجتمعي جديد حتى الوصول الى توافق مجتمعي.

ويبدو أن الخطوة الأولى للدراسة العلمية الجادة تتمثل في الوقوف على أهم الأخطاء المنهجية والإبستمولوجية في البحث في علوم الدين.

قلت: أنت تقول "من الضروري"، فما الدليل على أنه ضروري؟ أليس المفترض بورقة بحثية في مؤتمر علمي أن ينتصر صاحبها لمزاعمه بالأدلة اللائقة بها؟ أم أن المفترض بالناس أن تعاملك معاملة النبي المرسل أو

الفيلسوف العظيم الذي يتعين علينا أن نقلده إن أردنا لعقولنا أن تستنير؟؟ هذا السؤال طرحه عليه بعض الحضور، قال له ما حاصله: لماذا هذه النظرية بالذات، وما الدليل العقلي على أننا يلزمنا الأخذ بها؟ فرد عليه بتعال ظاهر واستكبار فاضح، وبعدما دعا عالما من علماء المملكة لأن يأتيه في مكتبه في جامعة القاهرة حتى يبين له "الضوابط" ويشرح له وكذا، رد بما قصاراه أن هذا مجرد رأي، والعبرة في النهاية بالرأي الجمعي الذي تنتهي إليه البرلمانات!! الله أكبر! الرجل يسألك عن الدليل العلمي الذي به زعمت أنه "من الضروري" لفقهاء المسلمين أن يتخذوا من تلك النظرية قاعدة للترجيح الفقهي، فتقول: ما يتفق عليه البرلمان؟؟! أهذه هي "إبستمولوجيا" علوم الدين التي تدعونا إليها؟ لا داعي للعلوم ولا للفقه ولا للنظريات أصلا إذن، إذا كان المرجح والدليل الذي به تستقر تلك الأقوال في التشريع لا يزيد على أن يكون هو صوت الأغلبية في البرلمان!

ما الدليل العقلي، على الأقل، على أن العملية التي تبدأ بتشريع ما، أو بإجراء شرعي معين، يجب أن تنتهي بإجراء شرعي مشابه؟؟ ما الدليل والمستند المعرفي الذي به قبلت أنت يا دكتور هذه القاعدة الكلية: "فما يتم وفق شكل وإجراء لابد أن يتم انهاؤه بالشكل والإجراء نفسه"؟ كأنما يريد أن يقول: كما أن الزواج لا ينعقد بغير شهود، فكذلك الطلاق يجب ألا ينعقد إلا بشهود! لماذا؟ لأن هذا ما به تنطبق النظرية المذكورة على مسألة وقوع الطلاق! فبالله ما وجه هذا القياس عند العقلاء؟ يعني إن سلمنا بأن الإشهاد والإشهار يقوم مقام التوثيق الاجتماعي والقانوني، وليس الأمر كذلك إذ التوثيق عمل إضافي على الإشهاد والإشهار وليس من شروط انعقاد الزواج أصلا عند أحد من

فقهاء الأمة، لكن دعنا نتنزل! سلمنا تنزلا بأن التوثيق القانوني من شروط انعقاد الزواج، فأين في مجرد ذلك ما يقتضي بالقياس أن يكون التوثيق القانوني من شروط وقوع الطلاق كذلك؟؟ وأهم من ذلك منطق التقعيد نفسه، أو إن شئت يا دكتور "إبستمولوجيا" التقعيد الفقهي نفسه! ما الدليل الأصولي على صحة هذا التقعيد؟ بطبيعة الحال هو لن يقبل منا اشتراطنا أن يكون الدليل "أصوليا"، أي جاريا على طرائق أصحاب صنعة أصول الفقه عند المسلمين، لأنه يريد التجديد، فلن يلتزم بمصادر تلقي الأصوليين في تحريرهم ما يحررون من القواعد والأصول! وهنا مربط الفرس!

فالأصوليون إن ذهبوا مذهبا أو قالوا بقول لا أساس له من استقراء نصوص الشريعة ومن قواعد اللغة ومن أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، ولم يكن مما يقتضيه العقل بداهة وضرورة (لا جريا على نظريات المتكلمين ومن شاكلهم)، كان حقه أن يهمل ولا يلتفت إليه! لأننا إنما نلتمس فهم الدين بما خلفه لنا أول من تلقوا هذا الدين وعملوا به بين أيدي الرسول نفسه ﷺ، لا بما جاء به أهل الملل الأخرى من أوهام وأقيسة واهية! فمن جديد نرجع ونقول: ما المستند العقلي الذي يلجئ علماء الأصول لأن يعتمدوا تلك القاعدة الواهية، وليتخذوها مرجحا لتلك البدعة التي تدعو إليها أنت وغيرك في مسألة وقوع الطلاق؟؟ لا شيء على الإطلاق! الرجل قرأ النظرية وتأمل في مسألة الطلاق، فسولت له نفسه القول بأنها إن طبقت عليها، فسترجح ذلك القول الذي يحوم حوله أمثاله من غربان التجديد، فقال: هذه هي! هذا هو التجديد الذي نرمي إليه!

ثم يسرد الدكتور بعد ذلك في مختتم الورقة عددا من النقاط الموجزة يسميها بالأخطاء المنهجية والإبستمولوجية (أي المعرفية) في البحث في علوم الدين! فيبدأ بتقرير تلك الشبهة المجملة السخيفة التي تقدم أن هدمناها على رأسه، ألا وهي قوله "الخلط بين المقدس والبشري"!! ثم يثني بقوله "علم التفسير القديم يقوم على الصواب الواحد، وليس على تعددية المعنى وتعددية الصواب" وهذا تصريح منه بالدعوة إلى نسبية الحقيقة! ففي كلمته التي ألقاها على منصة المؤتمر، في تسجيلها المتداول على مواقع الإنترنت، قال الدكتور: "وهنا أنتقل لنقطة جديدة وهي تعددية الصواب، هل القرآن الكريم كله قطعي الدلالة؟ أم أن به ما هو قطعي الدلالة وظني الدلالة؟ ظني الدالة أكثر، والا قطعي الدلالة؟ ظني الدلالة! هل هذا جاء عبثا؟ أبدا! ومن ثم فالصواب ليس واحدا! بل الصواب متعددا!"

قلت: فهذا والله من أعظم الأمثلة التي يجري عليها قول الملك جل شأنه:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ ﴾

الآية [آل عمران : ٧] بل لعلي لا أبالغ إن قلت إنني لم أقف في حياتي على حالة أحق بأن تدخل في أهل الزيغ المذمومين في هذه الآية من هذه الحالة بعينها، والله المستعان! تأمل منطق الاستدلال المطروق هاهنا لإثبات "تعددية الصواب" كما يسميها، واضحك ما شئت أن تضحك:

أولا: القرآن ليس كله قطعي الدلالة.

ثانيا: القرآن أكثره ظني الدلالة.

ثالثا: هذا لم يجئ عبثا.

إذن: الصواب (في القرآن) متعدد وليس واحدا!!

بداية يا دكتور دعنا نسألك تكرما: ماذا تقصد "بظني الدلالة"؟؟ إن كنت تقصد الآيات المتشابهات، التي تحتمل بعض ألفاظها في اللغة أكثر من معنى، فقد علمنا رسولنا ﷺ أن نحملها على المحكمات، كما جاء في السنة من سؤال الصحابة رضي الله عنهم إياه عن المراد بالظلم في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢]! فما الذي صنعه النبي عليه السلام في الجواب؟ أسقط جميع الوجوه المتحملة، ونص على صواب واحد فقط في فهم الآية، يؤخذ من محكمات القرآن! فهل هذا الفهم ظني عندك أم قطعي؟؟ نحن نقطع بصحته لأن الحديث قد أطبقت الأمة على قبوله، واتخذه الأصوليون أصلا في بابه! وكذلك الشأن في جميع المتشابهات في القرآن، إذا حملتها على محكمات القرآن، ظهر لك الوجه الوحيد الصحيح لفهم اللفظة المتشابهة، وتبين لك أنك إن حملتها على غيره مما تجيزه اللغة، خالفت تلك المحكمات وجئت بضلال مبين! فما الذي يدعونا لأن نعد المتشابهات كلها فيما سميته أنت "بظني الدلالة" مع أننا قاطعون بدلالة تلك الآيات على ما فهمه منها سلفنا رضي الله عنهم وتتابعت عليه قرون المسلمين؟؟

وإن كنت تقصد بظنية الدلالة، الآيات التي اختلف في تفسيرها المفسرون على قولين أو أكثر، فهذه إما أن تكون الأقوال فيها متنوعة في إطار معنى كلي واحد، فيكون كل قول منها بمنزلة بيان فرد من أفراد المعنى الكلي أو وجه

من وجوهه، وهذا ما عليه أكثر ما أثر عن السلف من تعدد الأقوال في تفسير اللفظة الواحدة في الآية الواحدة، وإما أن تكون متباينة أو متناقضة بمعنى أنه لا يمكن الجمع بينها تحت مراد واحد أو معنى كلي واحد، وهذا قليل في القرآن، وحتى مع وجوده، فلا يقال إن الصواب في تلك الآيات "متعدد"، بل هو واحد قطعا، فمن وفق إليه من المفسرين فهو مصيب، ومن لم يوفق إليه فهو مخطئ، ومن خرج عن إطار الأقوال المنقولة عن السلف كلها في فهم ألفاظ القرآن، فقد خرج عن سبيل المؤمنين وأحدث في فهم كتاب الله تعالى ما لم يسبق إليه! وهذا في مجرده دليل كاف لإبطاله بالضرورة، لأنه يقينا لن يخفي رب العالمين الفهم الصحيح لشيء في القرآن عن جميع أصحاب النبي عليه السلام والقرون المفضلة من بعده، ثم يكشفه أخيرا لمفسر من المفسرين لا في القرن الرابع أو الخامس، بل في القرن الخامس عشر الهجري!! لو جاز أن تجمع هذه الأمة على ضلالة أو غلط في فهم لفظة واحدة في كتاب ربها، فإن هذا يرجع عليه هو نفسه بالنقض والإبطال كما بينا!

والحق أن القول بأن كل مجتهد مصيب هذا، أو مذهب المصوبة كما يسمى، ليس جديدا، بل قد ذهب إليه بعض أصحاب الرأي والكلام من الأصوليين القدماء، وهو باطل قطعا من العقل والنقل جميعا، فأما من العقل فلأنه لا يجوز أن يكون الشيء وضده أو خلافه كلاهما حق في نفس الأمر! إما أني الآن جالس على المقعد في بيتي أو أني الآن أمشي في الطريق، ولا يجوز في العقل أن أكون على كلتا الحالتين معا! إما أن صاحب الكلام يقصد بكلامه أن ينقل إلينا معنى أن الكرة رزقاء اللون أو أن يعلمنا بأنها حمراء اللون! محال أن يكون مراده المعنيين جميعا! وأما من جهة النقل، فقد جاء في السنة أن

القاضي إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر، فأثبت وقوع الخطأ في الاجتهاد، وهو ما يهدم قولهم إن كل مجتهد مصيب، وإطلاق صاحبنا هذا قوله بتعددية الصواب!

ولا يشفع له استدلاله بحديث "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة"، فإن النبي عليه السلام إنما أقر الفريقين على الإجزاء، لا على أن كلا المذهبين صواب في نفسه! فالبداهة تقضي بأنه عليه السلام إما أنه كان يريد منهم أن يصلوا العصر بعدما يصلوا إلى بني قريظة، وإن دخلوها بعد المغرب، وإما أنه كان يريد منهم أن يتعجلوا ويسرعوا في سفرهم حتى يدركوا صلاة العصر في بني قريظة! أما أن يكون مراده كلا الوجهين معا فهذا باطل ممتنع بداهة وضرورة! فهم لما اجتهد كل فريق منهم فعمل بما ظهر له أنه هو مراد الرسول عليه السلام، أقرهم النبي عليه السلام على ما عملوا من حيث الإجزاء كما قلنا، لا من حيث تصويب مذهبهما معا! ولهذا نظائر كثيرة، كأن يجتهد رجلان مسافران في الصحراء ليلا مثلا في تحديد اتجاه القبلة، فيختلفان فيها، فيصلي هذا إلى جهة وذاك إلى الجهة المعاكسة، فهل معنى ذلك أن القبلة في كلا الاتجاهين معا؟؟ هذا محال! ومع ذلك تصح صلاتهما جميعا ولا يلزم المخطئ أن يعيد إذا تبين له أنه كان مخطئا، لأنه أدى ما عليه وإن لم يصب!

ثم يعترض الدكتور على سيادة العقائد الأشعرية (يعني في الأزهر خاصة)، ويقول كلمة حق يريد بها باطل، فيقرر أن النبي عليه السلام لم يكن أشعريا! ونقول صدقت يا دكتور! ولكنه كذلك لم يكن فيلسوفا كأولئك الذين قلدتهم وتشبعت بفلسفاتهم، فاتق الله! ثم ينبه إلى خطأ مزعوم عبر عنه بقوله "الخلط

بين الإسلام والموروثات الاجتماعية"! وهذه والله لا يقع فيها صبي من الصبية الدارسين في الإعدادية الأزهرية، فضلا عن أن يقع فيها عالم من علماء الدين سواء كان أزهريا أو غير ذلك! وكذلك النقطة التي تليها، فبدون العلوم التراثية التي جاء هو يطالبنا بتركها كلها وبناء غيرها، لن يكون لدى المسلمين آلة "للتمييز الإبستمولجي" (على عبارته) بين قطعي الدلالة وظني الدلالة! ثم يكرر كلامه السابق في نقاط تالية إلى أن يقول "الرؤية الأحادية للإسلام"، وهذه تكرار لمسألة "تعدد الصواب"، ولكن على مستوى الإسلام كله! فالواجب عنده أن نقبل تعدد رؤى الإسلام فرارا من تلك "الأحادية"! فمن رأى الإسلام على أنه من الملل القائلة بوحدة الوجود، لم يجز عند الدكتور أن ننكر عليه! والذي يزعم أن الأئمة الاثنا عشر المزعومون معصومون وأنهم أفضل من الأنبياء والرسل وأنهم من سألهم شيئا في بر أو بحر أجاوبه، هذا أيضا صاحب رؤية مستساغة للإسلام، إلخ! وقد تقدم أن الرجل يدعو لتوحيد الأديان كلها في إطار ما سماه "بكتاب الكون المقدس"!!

ثم يشكو من "عدم التمييز بين الأحاديث النبوية المتواترة والأحاديث الآحاد" كما سماها، وهذا منه ابتداء غلط وجهل في تحرير الاصطلاح، فلفظة آحاد في الاصطلاح ليست وصفا للأحاديث، وإنما هي وصف لرواتها ونقلتها، فيقال "أحاديث الآحاد" أي الأحاديث المروية عن الآحاد، وليس "الأحاديث الآحاد"!! وهذا والله مما تعجب معه غاية العجب، عندما تسمع الدكتور يفاخر – بعدما قرعه شيخ الأزهر بتعليقه – بأنه حقق ونشر بضعا وستين كتابا شرعيا، وأنه نشر كتابا بعنوان "مفاتيح علوم الحديث" في عام ست وثمانين من القرن الميلادي الماضي، شرح فيه ما سماه "بدرجات الصحة والخطأ"

في الحديث! فما نقول إلا سلم يا رب سلم!! فليكن أنك نشرت تسعين كتابا، بل تسعمائة كتابا، فكان ماذا؟؟ قد كشف الله لنا قيمة تلك الكتب كلها بفضل الله ومنته من غير أن نطالعها، وقضي الأمر! وهذه سنته الماضية في أمثالك يا دكتور، فالحمد لله أولا وآخرا!

يبدأ المقطع المسجل المتداول بكلام للدكتور الخشت من فوق المنصة حول مسألة حديث الآحاد وحجيته في العقائد، فيقول: "ولا أظن أن أحدا من الجالسين في هذه القاعة يختلف على أن أحاديث الآحاد أحاديث ظنية الثبوت، والحجة هي كيف نأخذ في العقائد التي يجب أن تقوم على اليقين، بما هو ظني الثبوت؟!"

قلت: فمن الذي قال إن أحدا من الجالسين في القاعة لا يخالفك في ذلك؟؟ أشققت عن صدورهم جميعا؟ نعم العقيدة الأشعرية هي العقيدة التي تدرس رسميا في الأزهر، ولكن هذا لا يقتضي أن يكون جميع علماء الأزهر أشاعرة، فضلا عن غيرهم من الحضور! ثم من أين لك الحكم بأن حديث الآحاد، بهذا الإطلاق، لا يثبت عند المسلمين ثبوتا يقينيا ولا يتصور فيه ذلك؟ أنت تؤسس عقيدتك على الجزم بأن حديث الآحاد "ظني الثبوت" كما سميته، والعقيدة لا تثبت إلا باليقين دون الظن! فنحن نسألك: هل حكمك هذا نفسه، بأن حديث الآحاد لا يكون إلا ظني الثبوت، هذا عندك فيه دليل قطعي لا يرد عليه المعارض؟ بل هل عندك فيه دليل أصلا، قطعيا كان أو ظنيا؟؟ الجواب لا! وإذن فليس هذا الأصل في أصول عقيدتك أنت إلا وهما، وليس هو من اليقينية في شيء أصلا! بل أزيدك من الشعر بيتا وأقول: إن أول من آمنوا

بالرسول عليه السلام من الصحابة، كان خبره هو نفسه الذي جاءهم به، أنه رسول من الله تعالى يدعوهم لترك دين آبائهم وأجدادهم والدخول في دينه، على ما لذلك النبأ من شأن عظيم ومن أثر بالغ على حياة الواحد منهم، من أخبار الآحاد! فلو أنهم اشترطوا في قبوله منه ألا يأتيهم إلا متواترا لأن خبر الواحد لا يكفي في مثله، أفكانوا يدخلون في دين الإسلام أصلا؟؟ أفكانوا يكتفون برسول واحد يدعوهم إلى دين غير الدين؟؟ إرسال الرسول الواحد للأمة الكبيرة، يجعل خبره إليهم من خبر الواحد أم من خبر الكافة؟ إن قلت هو من خبر الكافة كذبت، وإن قلت هو من خبر الواحد، لزمك أن تحيل كافة المعارف الشرعية، العلمية منها والعملية، إلى ما تسميه تلبيسا "بالظن"، لأنها إنما تأسست عند المسلمين على التصديق بنبوته عليه السلام، وإنما كان إخباره هو نفسه عن نبوته في أول البعثة من خبر الواحد، وإذن بطل شرطك وامتنع أن يحصل اليقين في شيء من أمر الدين البتة، وإذن لم يحصل للمسلم اعتقاد أصلا، ولا تحقق بشيء مما يقال له عقيدة، فتأمل!

والصواب الذي عليه عقلاء المسلمين وأئمتهم من أهل الحديث والأثر، هو أن خبر الآحاد إذا تحققت شروط قبوله وأسباب التسليم بصدق ناقله وضبطه لما ينقل، وانتفت الموانع في ذلك، وجب قبوله سواء في العقائد أو في الأحكام، وتفاوت ما يحصل من طريقه من المعرفة في مقدار اليقين في ثبوت تلك المعرفة، بحسب موضوع الخبر وما يحتف به من قرائن الصدق وأسباب التصديق!

نعم التواتر ولا شك يفيد اليقين، ولكنه ليس هو الطريق الوحيد لحصول اليقين في صحة النقل عند المسلمين، وليس اليقين نفسه إذا حصل، على منزلة واحدة سواء في إثبات العقائد أو الأحكام! وهذه مسألة لا يماري فيها من شم رائحة العلم بأنفه! فكلام المتكلمين ونحوهم من الأصوليين في التفريق بين إفادة العلم وإفادة الظن، وكأن العلم لا يحصل إلا بيقين منصرم، وكأن اليقين نوع واحد أو درجة واحدة لا يقال فيما ينزل عنها إنه "علم" أصلا، هذا كله تحكم اصطلاحي فلسفي باطل لا يلزم عقلاء المسلمين أن يقبلوه، ولا يلزمهم أن يقلدوا أصحابه كما اخترت أنت يا دكتور أن تقلدهم، وأنت تزعم أنك تدعو المسلمين للفكر النقدي والانفكاك من التقليد وكذا!

والقصد أن إطلاق الحكم بأن مجرد كون الخبر من أخبار الآحاد يجعله ظني الثبوت، ثم الحكم بأن "ظنية الثبوت" هذه تنزل به ضرورة، نزولا نوعيا، عن منزلة اليقين اللائق ببناء الاعتقاد الجازم عند المسلم، هذا إطلاق فاسد وقع عند المتأخرين من أهل الكلام والأصوليين، ولم يعرفه السلف والأئمة رحمهم الله تعالى، ولو عمل به الصحابة أول ما سمعوا بمحمد ﷺ، ما أسلموا أصلا وما كنا نحن اليوم مسلمين!

فلماذا قبل الصحابة خبر النبي عليه السلام وأسسوا عليه دينهم مع أنه خبر واحد، ومع أن مسألة المصير الأخروي مسألة عظيمة خطيرة، بل ليس في مسائل الناس ما هو أعظم منها، ولا يطلب اليقين في صحة شيء كما يطلب فيها؟ السبب هو ما كان مركوزا في فطرهم جميعا خلقة وجبلة من علم بدهي ضروري بوحدانية الباري جل شأنه، وببطلان الشرك بجميع صوره، فلما

جاءتهم دعوى هذه موضوعها، وكانت نفوسهم خالية من الأهواء الصارفة المانعة من قبول الحق، جزموا ابتداء بأن موضوع الدعوى، دعوى الإسلام، حق في نفسها! ولما كانوا قد علموا من محمد ﷺ سيرته الزكية العطرة، وأنه ما كان يعرف إلا بكل صدق وخير وبر، بأبي هو وأمي، اجتمعت الأسباب البديهية لتصديقه في دعوته عليه السلام، وفي زعمه أنه مرسل من ذلك الرب الواحد الذي لا يقبل الإشراك به من أحد من خلقه! قبلوا منه دعوى الإسلام وأيقنوا صدقه فيها دون التفات إلى كونه رجلا واحدا، ﷺ!

وكذلك يقال في كل خبر ينقله آحاد الصحابة عن الرسول ﷺ، فما دام موضوعه من موضوعات الدين، التي يلزم من تبلغه أن يذعن لها إذعانا ويسلم لها تسليما، وأن يدين بما فيها ديانة، سواء كان ذلك علما أو عملا، فمدار المعرفة بالثبوت في ذلك على صدق الراوي وضبطه، لا على تفرد الناقل أو تعدده! فإن تحققت الشروط التي تثبت بها العدالة والضبط، وانتفت العلل المانعة من قبول الخبر، حصلت المعرفة الموجبة للإيمان في الأمر الخبري العلمي، كما تحصل المعرفة الموجبة للعمل في الأمر العملي سواء بسواء! والذي يفرق بين العلميات والعمليات في ذلك يفرق بين المتماثلات، ويتناقض تناقضا ظاهرا!

فعلى هذا الذي ذكرنا، قد تجد نصا ثابتا من طريق واحدة، لا يقل ثبوتا وإفادة لليقين عن نص متواتر في مسألة مشابهة، هذا إن سلمنا تنزلا بأن قوة الدلالة في النصين واحدة، وإلا فمعلوم أن قوة الدلالة لها تأثيرها كذلك في مقدار ما يحصل من النص من يقين في المعرفة المأخوذة منه، سواء في العقائد أو في

الأحكام. فقد تجد النص الواحد في القرآن يختلف عليه العلماء فيما إذا كان يؤخذ منه إثبات صفة لله تعالى أم لا يؤخذ، مع أنه متواتر تواترا مطلقا، وقد تجد نصا في السنة قد أطبقت الأمة على الاستدلال به في إثبات صفة معينة لله جل شأنه، مع أنه من نصوص الآحاد! والمفارقة نفسها تجدها في مسائل الأحكام، ولا فرق!

قلنا إن اشتراط المتكلمين ومن نهج نهجهم من الأصوليين أن يأتيهم الخبر متواترا في بعض أبواب الدين دون بعض حتى يقبلوه، لا دليل على صحته عقلا، ولا على أن اليقين لا يحصل في السمعيات إلا به، مهما كان موضوعها عظيم الشأن. والواقع أنهم إن أرادوا أن يتكلفوا الإتيان بدليل يثبت لهم ذلك الأصل الفلسفي الفاسد، فسنلزمهم بأن يثبتوا لنا أن من الصحابة من اشترط ذلك الشرط عند سماعه شيئا من أمر الدين من غيره من الصحابة، يزعم أنه تلقاه عن الرسول ﷺ، سواء في العلميات أو في العمليات. ولن يجدوا ذلك وإن جهدوا، إذ هم يعلمون أن دواوين السنة طافحة بنقل آحاد الصحابة عن الرسول عليه السلام في أمور تمس حاجة الناس إليها في مسائل في أمور الغيب وأخباره بل وفي أسماء الله وصفاته، من غير أن يروي أحد من الرواة أن منهم من اشترط في تصحيح الخبر أن يأتيه متواترا عن الكافة من الناس، ويعلمون كذلك أن الرسول عليه السلام ما كان يشترط ألا يحدث أحدا بشيء من الأمور العظيمة في الدين، سواء في العقائد أو في العبادات، إلا على ملأ عظيم من الناس يستحيل في العادة أن يتواطأوا على الكذب عليه!

بل حتى خطبه المنبرية ﷺ التي كان يحضرها المئات من أصحابه، لم يشترط عليهم جميعا في شيء منها، أن يحدث كل واحد منهم بجميع ما سمعه فيها حتى يحصل التواتر، ومن زعم ذلك فليتحفنا بالدليل عليه!! بل إن أشهر خطبه عليه السلام، خطبة الوداع التي حضرها مئات الآلاف من المسلمين، لم تنقل إلينا إلا بخبر الآحاد! وهو أمر لم يجد فيه أحد من علماء أهل الحديث وأئمتهم ما يدعوه للتشكيك فيها أو للغض من قوة ثبوتها، بنقله من منزلة "اليقينية" إلى "الظنية"، أيا ما كان المراد "بالظنية" هذه! بل كانوا جميعا قاطعين جازمين بأنها وقعت، مجمعين على أن النبي عليه السلام قال فيها ما أخرجه البخاري في صحيحه! فأي شيء يكون القطع والجزم بأن شيئا ما من كلام الرسول عليه السلام، إن لم يكن هو "قطعية الثبوت" التي لا مزيد عليها؟!

ولا شك أن أصلا كليا بهذه الخطورة في أصول الدين ومصادر تلقيها، قد جعله الخلف شرطا في إثبات العقائد كلها، لهو حري بأن ينص عليه الأئمة الأقدمون وأن ينقلوا فيه الآثار المستفيضة عن السلف الأول الذين هم أكمل المسلمين إيمانا وأحسنهم دينا، إن لم يكن بتزكية الله ورسوله لهم، فعلى الأقل بموجب دلالة العقل على أنهم هم أحظى الناس بمرافقة إمام الملة صلى الله عليه وسلم وتلقي الدين الخالص الصحيح عنه مباشرة بلا واسطة، وأصحاب الرجل أعلم به ممن سواهم كما هو متقرر في البداهة! فإن لم يثبت ولا عن واحد فقط من هؤلاء النبلاء، رضي الله عنهم وأرضاهم، أنهم كانوا يشترطون ذلك الشرط البدعي المتنطع في مسائل الاعتقاد خاصة، بل ولا في أي نوع من أنواع المسائل على الإطلاق، لزم أن تلحقهم التهمة بأن إيمانهم واعتقادهم

جميعا عار عن أسباب اليقين في السمعيات، وإذن فلا ثقة فيما يتواتر عنهم بعد في أي شيء مما ثبت فيه تواتر النقل عنهم، ولا حتى في القرآن نفسه! فإذا بطل اللازم بطل الملزوم، ولم يتصور للقوم إذن أن يأتوا بأي دليل يصلح لإثبات ذلك الأصل البدعي وأنه هو ما به يقبل المسلمون الخبر في أبواب الاعتقاد، إذ لا يكون لمبدأ نقل الدين نفسه قيام باليقين في نفوس الناس أصلا، لا في الأولين ولا فيمن جاء بعدهم من باب أولى، فتأمل!

اعلم يا دكتور أن الذي حمل أول من بدع تلك البدعة الخبيثة من المتكلمين على النهوض بها، هو أنه لما جيء بأحاديث فيها من صفات الباري جل شأنه ما لا يعجبه، لما حشا به نفسه من قبل من نظريات وحدود ميتافزيقية تمنع من قبولها، لم يجد إلا أن يعترض على تلك النصوص بأنها لا تقوم بالمطلوب من إثبات تلك الصفات! فإن لم يكن المخرج بالطعن على أصل ثبوت تلك النصوص نفسها، فعلى الأقل باختراع التأويل الموافق لما عنده من تلك البضاعة التي ذكرنا! ولو أن هؤلاء استطاعوا أن يسقطوا نصوص القرآن نفسها بأنها لا تثبت أو بأن ثبوتها ظني والعقائد لا تؤخذ إلا من القطعي، لفعلوا، لأن الأصل فيما يخالف فلسفتهم وعقائدهم المؤسسة عليها عندهم، أنه باطل لا يرفعون به رأسا، إذ ليس فوق ما جعلوه هو "القطع العقلي" شيء يعلو عليه! ولكن لأن أحدهم لا يجرؤ على الوقوع فيما علم أن أتباعه وأقرانه سيكفرونه به قولا واحدا ولا كرامة، لم يجرؤوا على الطعن في ثبوت نصوص القرآن، ولم يجدوا إلا الاختراع والابتداع في تأويله! يقول قائلهم: لفظ الآية حق كما في المصحف ولن أجادل في ذلك، وإنما أجادلكم في فهمكم

لمعاني تلك الألفاظ! وأما السنة، فلم يشترط فيها أئمتها من السلف رحمهم الله تعالى أن يكون نقل كل نص من نصوصها متواترا كالقرآن، ومن هنا زين الشيطان لهؤلاء أن يهونوا من ثبوتها حتى لا تقوم بها الحجة عليهم!

فبأي شيء يتذرع الواحد منهم لرد ما لا يعجبه من الأحاديث جملة واحدة، يطعن عليها في مبدأ الإثبات نفسه؟ يقول إن مثل هذه المسألة مسألة عظيمة من مسائل الاعتقاد، ولا يكفيني في مثلها أن تسوقوا إلي روايتها عن صحابي واحد! بل أشترط عليكم أن تأتوني بها مروية عن جمع كبير من الصحابة لا يجوز في العقل أن يتواطأوا على الكذب، حتى تطمئن إليها نفسي! ونحن نقول: إن هذا الكلام، على ما فيه من تنطع فاحش لم يعرف في المسلمين قبل هؤلاء، يلزم منه إسقاط عدالة الصحابي رأسا، إذ لا يقول إن رواية أبي هريرة أو عبد الله بن عمر أو ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهم من "آحاد" الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم لا تكفيه في إثبات العقيدة، وإنما يكتفي بها في إثبات الفروع والأعمال والأمور التي هي دون العقيدة، إلا من كان كأنما يقول إنني لا أثق في هؤلاء الصحابة أنفسهم ولا آمنهم في الرواية إلا في حدود الأمور الهينة، التي لا أخشى الهلاك في الآخرة إن قدر أن كانوا فيها كاذبين أو مخطئين! وأما الأمور العظيمة، التي هي عندي من أصول الدين، فأشترط فيها نقلا عن الكافة منهم حتى يكون سالما من احتمال الكذب! فأي كبر هذا، وأي غمط لأصحاب الرسول ﷺ؟ نسأل الله السلامة!

ولا أدري حقيقة بأي وجه أو دين يهوّن صاحب هذه الدعوى من أمر العبادات والأحكام والأعمال كلها على هذا النحو، ومنها ما يكون في أمور

معلومة من الدين بالضرورة، كنصاب زكاة المال مثلا، أو كعدد ركعات الصلاة، أو نحو ذلك من أمور هي عند الأئمة من أصول العمليات التي يكفر من يردها، مع أنها لا تقوم على نصوص متواترة ولا قريبة من التواتر! ولكن أهل الكلام على أي حال، كل أمر الدين عندهم هين، إلا ما يتعلق بعقائدهم التي انتهوا إليها من طرقهم الكلامية والفلسفية، فهذه هي أصول الملة التي لا يقبلون ما يخالفها ويزعمون أن الأمر فيها أعظم عندهم من أن تأتيهم النصوص في موضوعها من طريق صحابي واحد، أو من ثلة قليلة من الصحابة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! إنه شرط الفيلسوف المستكبر الذي جعل الأصل في عقيدته ألا يزول عن شيء مما سبق منه اعتقاده بعقله ونظره قبل السمع، إلا إن جاءه السمع متواترا في الثبوت، وكان بعد ثبوته لا تحتمل ألفاظه أن تؤول على ما يوافق ما هو عليه! فحينئذ وحينئذ فقط، قد يقبل صاحب العلو والعظمة أن ينزل من عليائه ومن برجه العاجي الذي بناه لنفسه في عقله ووهمه، ويقبل ما جاء به الناس من النصوص في نفس الأمر، وإلا فالواجب عليهم جميعا أن يكونوا هم تبعا له فيما عنده، نظرا وفهما وتأويلا، لا العكس! فنعوذ بالله السميع البصير من أحوال هؤلاء، كما قال سبحانه في محكم التنزيل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦]

ثم إن الواقع يكذب هؤلاء الذين يزعمون أن قطعية الثبوت هي شرطهم في تلقي العقائد! كيف وهم يجعلون نظريات المتكلمين وحدودهم المتكافئة عقلا في أحسن أحوالها، المصدر الأول لتلقي العلم بما يجوز وما يمتنع في حق الله تعالى من الصفات؟ هم يزعمون أن قاعدة "ما كان محلا للحوادث فهو حادث" مثلا، تبلغ أن تكون في منزلة القطع العقلي المنصرم، مع أن معنى التركيب "محلا للحوادث" بل ومعنى لفظة "حادث" نفسها، خاضعان عندهم لميتافزيقا الجوهر والعرض الأرسطية التي زال عنها فلاسفة العالم اليوم ولم يعد لها وجود في أكاديميات العلوم في أركان الأرض إلا في كتب تاريخ الفلسفة، ثم في كتب المتكلمين الأوائل الذين أسسوا عليها من الدين ما أسسوا، خضوعا لشرط الفلاسفة في عصرهم في الإثبات والنفي المعرفيين، فصيروها من قطعيات العقل بالتحكم والأماني!

وإني لأتحدى الدكتور الخشت أن يثبت لنا أنه قد أسس شيئا من العقائد التي تعلمها هو نفسه في صغره يوم تعلمها، على شرط التواتر في التلقي! فإن صورة ذلك في تلقي العلم، ألا يقبل من أحد من أساتذته تقريره لعقيدة من عقائد المسلمين إلا إن جاءته من مئات الأساتذة يقررونها هي نفسها، وعلى شرط أن يأتوه بمئات النقلة لكل نص في أدلة تلك العقائد عندهم، لا أن تكون روايته من طريق واحدة أو من جملة من الطرق لم تبلغ حد الاستفاضة في النقل، وهذا محال، لم يقع لأحد أبدا، وليس بواقع! ولهذا قال جل شأنه:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] فإنه لو كان التواتر شرطا في قبول الرواية عن الرسول ﷺ في العقائد خاصة، كما زعمه هؤلاء تنطعا، لما جاز أن يكتفى بعمل طائفة دون الكافة في التفقه والنذارة، بهذا الإطلاق الذي لم نر في شيء من النصوص ولا في أدلة الشرع ما يقيده! ولهذا اعتمد علماؤنا هذه الآية في جملة الحجج السمعية الظاهرة التي يرد بها على هؤلاء.

لن أطيل في نقض هذه البدعة القديمة فقد استفاضت تصانيف الأئمة في نقضها بداية من زمان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى نفسه ووصولا إلى الألباني رحمه الله! وإنما رأيت أن الحاجة تدعو لبيان أن أولئك الذين زعموا أن عقولهم أرفع من أن تكتفي في إثبات العقائد بأخبار الآحاد، هؤلاء عقولهم ممروضة في الحقيقة، مصابة بما حق لكل مؤمن سالم من الفلسفة والكلام أن يحمد الله على السلامة منه من أنواع العلل والأمراض، آناء الليل وأطراف النهار، فالحمد لله على نعمة السنة وكفى بها نعمة! هم يزعمون أن الدليل العقلي ينصرهم، وأنهم أسعد الناس حظا به، فها قد بينا بحول الله وقوته أن العقل بريء مما هم عليه، وأنهم أبعد الناس عن إثبات الاعتقاد على شيء من اليقين المنصرم قل أو كثر، ولا يزال ربهم يعاملهم في مسألة اليقين هذه بنقيض قصدهم جزاء وفاقا، كما يعلمه من خبر أحوالهم علم اليقين، والحمد لله أولا وآخرا!

وفي مختتم الورقة، يطرح الدكتور سؤالا فيقول: لماذا كل هذا الخلط ولماذا كل هذه الأخطاء المنهجية؟ ثم يجيب بمسألة انغلاق العقل المزعومة، وبما يسميه "بالنظرة الأحادية المتعصبة"، ثم يخترع نظرية اجتماعية على غرار نظرية كارل ماركس في تفسير نشأة الدين اقتصاديا وماديا، فيقول: "فمن وجهة نظري، إن الخطاب الديني التقليدي هو إنتاج لنمط الاقتصاد الرعوي، لأننا حتى الآن في العالم العربي لا نزال نعيش في نمط الاقتصاد الرعوي المشكل للحياة والمحدد لأنماط العلاقة والتفاعل."

وكالعادة نسأل الدكتور: هل لنا أن نطالبك بالدليل يا دكتور تكرما؟ أم أن المطلوب منا أن نقلدك؟ إن قلدنا الصحابة رضي الله عنهم (على زعمه أن اتباعهم والاستدلال بأقوالهم وأفاعلهم يعد تقليدا في حقنا) تفسد عقولنا، ولكن إن قلدنا الفلاسفة ومنهم الدكتور نفسه، تصح عقولنا؟ سبحان الله!

يا دكتور، كل دعوى من جنس: "نمط الاقتصاد كذا كان هو المشكل للحياة والمحدد لأنماط العلاقة والتفاعل" هي محض مغالطة واختزالية سببية من أقبح ما بدعته عقول الفلاسفة! ولك في نقد كارل بوبر الشهير لنظرية كارل ماركس عبرة إن أردت أن تعتبر! من الذي يملك أن يثبت، بأي صورة من صور الاستدلال المعقول، أن نمطا معينا من أنماط السلوك الاقتصادي في أمة من الأمم، بهذا الإجمال والإطلاق والشمول الفاحش، كان هو السبب في تلبس الباحثين في العلوم الدينية في تلك الأمة بما تزعم أنهم متلبسون به من أخطاء وتعصبات وكذا؟؟ ثم إن الاقتصاد نفسه إنما هو صورة من صور ما سميته "بأنماط العلاقة والتفاعل"! فالصواب أن يقال إن النمط الاقتصادي

جزء من نمط الحياة والعلاقات والتفاعلات بين الناس في مجتمع من المجتمعات، لا أنه هو الذي يحددها! وليت شعري كيف لك، وأنت تقول بتلك الدعوى الماركسية في المنهج والطريقة، أن ترد على فيلسوف ماركسي يزعم أن نمط الإنتاج المادي هو المحدد لكل أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية عبر التاريخ، بما فيها الدين نفسه؟

عفوا، نسيت أن الماركسي على مذهبك مصيب، كما أنك مصيب، وجميع أهل الملل والفلسفات على صواب، كما نجده مسطورا في كتاب الكون المقدس!!

فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

وفي الختام أقول:

يا هؤلاء، هي كلمة صارمة يجب أن تقال لكم جميعا صريحة بلا مداراة ولا مداهنة! إن كان ما تقصدونه بالتجديد في الخطاب الديني، هو هدم حجية الفهم السلفي للكتاب والسنة وحجية إجماع الصحابة رضي الله عنهم، التي هي أساس العلوم الشرعية كلها في تراثنا، فليس هذا إلا هدما للدين ونقضا له من أصوله التي يقوم عليها! وإذن فلا حقيقة لقولكم بتجديد الخطاب الديني إلا أنه الإتيان بدين جديد على الهوى والمزاج، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

نسأل الله السلامة والهداية للمسلمين، وأن يكفينا شرور الفلاسفة وإفسادهم للعقل والدين، والحمد لله أولا وآخرا.

وكتب

أبو الفداء ابن مسعود

عفا الله عنه وعن والديه